الآيــة رقــم (١٥٧)

قال تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾ .

صلوات : الصّلاة من الله المغفرة ، قاله ابن عبّاس[١] والعفو[٢] كالّذى روى عن النّبىّ ﷺ أنه قال :اللّهم صلّ على آل أبى أوفى يعنى اغفر لهم[٣] وقال الزّجّاج : الصّلاة من الله عزّ وجلّ الغفران والثّناء الحسن . ومن هذا الصّلاة على الميّت إنّما هو الثّناء عليه والدّعاء له[٤] .

ورحمة : الرّحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة[٥] .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب نعم العِدْلان ونعمت العلاوة : ﴿ أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمة ﴾ . فهذان العدلان . وأولئك هم المهتدون . فهذه العلاوة ، وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادةٌ فى الحمل ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً[٦] .

تبيّن الآية الكريمة ثواب الله تعالى العظيم للصّابرين . والآية الكريمة تبدأ باسم الإشارة الدّالّ على البعد « أولئك » وفى ذلك إشارةٌ إلى رفيع منزلة هؤلاء الصّابرين عند ربّهم جلّ وعلا . ويلاحظ أنّ اسم الإشارة ذاته يجىء للمرّة الثّانية مشيراً لأولئك الصّابرين مقرّراً صفة الهداية لهم فى هذه المرّة ، بعد تقرير صلوات الله تعالى عليهم ورحمته بهم فى المرّة الأولى .

ويجىء فى القول : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة ﴾ حرف الجرّ على الدّالّ على الاستعلاء والاشتمال ، فصلوات الله تعالى ، هكذا فى صيغة الجمع بمعنى مغفرة

---

(١) البحر المحيط ٤٥٢/١ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٨
(٣) تفسير الطبرى ٢٦/٢ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٨
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٨ والبحر المحيط ٤٥٢/١
(٦) تفسير بن كثير ١٩٧/١ وتفسير القرطبىّ ص ٥٥٨ والبحر المحيط ٤٥٢/١

الله تعالى ذنوبهم بعد مغفرة ، وعفوه سيّئاتهم بعد عفو ، وثنائه الحسن عليهم بعد ثناء ، ورحمة الله تعالى بمعنى لطفه بهم وقضاء حوائجهم وكشف كربهم ، كلّ ذلك قد شمل الصّابرين بفضل الله تعالى ومنّه وأحاط بهم . وانظر إلى صيغة التّنكير التى جاءت فيها صلوات ورحمة والّتى تدلّ على تنوّع الصّلوات والرّحمة إثر تتابعها ، وانظر إلى لفظة الرّبّ وقد لحق بها اسم الضّمير العائد على الصّابرين فى القول :﴿ من ربّهم ﴾ إنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى مواقف الخصوص ، وقد عمّقت الإضافة هذا المعنى . ويرتبط بعد ذلك بلفظ الرّبّ جوّ الرّضا والامتنان والابتهاج الذى يشيعه هذا إلى التّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ورعايته شئونهم ووجوب القيام بالشّكر على كلّ ذلك .

وإذا كانت الصّلوات والرّحمة بمثابة العِدْلين على رأى الفاروق رضى الله تعالى عنه ثواباً من عند الله تعالى ، فإنّ الهداية فى رأيه رضى الله تعالى عنه بمثابة العِلاوة فضلاً من الله تعالى ومِنّة . ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ إنّ رفيع المنزلة نفهمه من اسم الإشارة ، وإنّ شيئاً من الاختصاص نفهمه من اسم الضّمير المنفصل ومن أداة التّعريف فى القول : ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ إنّ الصّابرين فى البأساء والضّرّاء وحين البأس والّذين إذا أصابتهم مصيبة يقولون ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ هم الّذين سيشملهم الله تعالى بمغفرته وبرحمته ، وهم المهتدون حقًّا إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم المؤدّى بإذن الله تعالى إلى الجنّة الّتى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال رسول الله ﷺ :من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه[1] إنّ أولئك المهتدين هم الّذين استرجعوا وسلّموا الأمر كله لله تعالى . إنّهم هم المصيبون طريق الحقّ والقائلون ما يرضى عنهم ، والفاعلون ما استوجبوا به من الله الجزيل من الثواب[2] .

---

(١) تفسير الطّبرى ٢/٢٦

(٢) تفسير الطّبرى ٢/٢٦

الآيــة رقــم (١٥٨)

قال تعالى : ﴿ إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما . ومن تطوّع خيراً فإنّ الله شاكرٌ عليم ﴾ .

ســبب الــنّزول :

« روى البخاريّ عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصّفا والمروة قال : كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهليّة . فلمّا كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ﴾ . وخرّج التّرمذيّ عن عروة قال : قلت لعائشة : ما أرى على أحدٍ لم يطف بين الصّفا والمروة شيئاً وما أبالى ألاّ أطوف بينهما . فقالت : بئسما قلت يا ابن أختى . طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون . وإنّما كان مَنْ أهلّ لمناة[1] الطّاغية الّتى بالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصّفا والمروة . فأنزل الله تعالى : ﴿ فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ﴾ . ولو كانت كما تقول لكانت : فلا جناح عليه ألاّ يطّوّف بهما . قال الزّهريّ فذكرت ذلك لأبى بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال : إنّ هذا لعلم . ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون : إنّما كان من لا يطوف بين الصّفا والمروة من العرب يقولون : إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهليّة . وقال آخرون من الأنصار : إنّما أُمِرْنا بالطّواف بالبيت و لم نؤمر به بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الصّفا والمروة من شعائر الله ﴾ . قال أبو بكر بن عبد الرّحمن : فأراها قد نزلت فى هؤلاء وهؤلاء . قال : هذا حديث حسنٌ صحيح ، أخرجه البخاريّ

---

(١) مناة : اسم صنم فى جهة البحر ممّا يلى قُديْداً بالمشلّل على بضعة أميال من المدينة . والمشلّل : جبلٌ يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

بمعناه[١] وفيه بعد قوله : فأنزل الله تعالى : إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله . قالت عائشة : وقد سنّ رسول الله ﷺ الطّواف بينهما ، فليس لأحدٍ أن يترك الطّواف بينهما . ثمّ أخبرت أبا بكر بن عبد الرّحمن فقال : إنّ هذا لعلمٌ ما كنت سمعته . ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أنّ النّاس إلاّ من ذَكَرَت عائشة ممّن كان يهلّ بمناة كانوا يطوفون كلّهم بالصّفا والمروة . فلمّا ذكر الله تعالى الطّواف بالبيت و لم يذكر الصّفا والمروة فى القرآن قالوا : يا رسول الله ، كنّا نطوف بالصّفا والمروة وإنّ الله أنزل الطّواف بالبيت فلم يذكر الصّفا فهل علينا من جرجٍ أن نطّوّف بالصّفا والمروة ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : إنّ الصفا والمروة من شعائر الله . قال أبو بكر : فَأَسْمَعُ هذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما . فى الّذين كانوا يتحرّجون أن يطوفوا فى الجاهليّة بالصّفا والمروة والّذين يطوفون ثمّ يتحرّجون أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أنّ الله تعالى أمر بالطواف بالبيت و لم يذكر الصّفا حتّى ذكر ذلك بعدما ذكر الطّواف بالبيت[٢] وروى البخارىّ وكذلك التّرمذىّ عن عاصم بن سليمان الأحول[٣] قال : سألت أنس بن مالك رضى الله عنه عن الصّفا والمروة فقال : كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهليّة ، فلمّا كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله تعالى : إنّ الصّفا والمروة إلى قوله أن يطّوّف بهما[٤] وقال الشّعبىّ : كان على الصّفا فى الجاهليّة صنم يسمّى إسافاً وعلى المروة صنم يسمىّ نائلة فكانوا يمسحونهما إذا طافوا . فامتنع المسلمون من الطّواف بينهما من أجل ذلك فنزلت الآية[٥] .

---

(١) نظر صحيح البخارىّ ٢٨/٦

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٩ وجاء النّصّ الأخير فى تفسير الطّبرىّ ٢٩/٢ : « قال أبو بكر : فَأَسْمَعُ أنّ هذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما فيمن طاف وفيمن لم يطف » .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٠ .

(٤) صحيح البخارى ٢٨/٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٨/٢

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٨/٢ ومعانى القرآن للفرّاء ٩٥/١

مناسبة الآية الكريمة :

كان حديث الآيات الكريمات السّابقات عن الصّبر مستفيضاً إذ أمرت بالاستعانة بالصّبر وبالصّلاة ، وتحدّثت عن الجهاد فى سبيل الله تعالى من زاوية ثمرته اليانعة النّاضجة الاستشهاد فى سبيل الله تعالى وثواب الشّهادة ، ومعروف أنّ حاجة الجهاد فى سبيل الله تعالى للصّبر كبيرة ، وكذلك حاجة من ابتلاه الله تعالى بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات ، وعلى قدر الصّبر والامتثال لقضاء الله تعالى وقدره يكون الثّواب والأجر . ولمّا كان الرّكن الخامس من أركان الإسلام ، الحجّ الى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ، بمثابة الجهاد ولكن لا شوكة فيه ، كما جاء فى الحديث النّبوىّ الشّريف لشدّة حاجة الحجّ للصّبر ، فقد كان فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها حديث عن السّعى بين الصّفا والمروة ، ولذلك كبير علاقةٍ بالحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام والعمرة . عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما أنّ رجلاً جاء إلى النّبىّ ﷺ فقال : إنّى جبان ، وإنّى ضعيف فقال : هلمّ إلى جهادٍ لا شوكة فيه ، الحج . رواه عبد الرّزّاق والطّبرانى ورواته ثقات . وعن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : جهاد الكبير والضّعيف والمرأة الحجّ . رواه النّسائى بإسنادٍ حسن . وعن عائشة رضى الله عنها أنّها قالت : يا رسول الله ، ترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : لكنّ أفضل الجهاد حجٌّ مبرور . رواه البخارى ومسلم[1] .

ومن أوضح الأدلّة على حاجة الحجّ لكمّيّةٍ كبيرةٍ من الصّبر أنّه بالمقارنة بين هذا الرّكن الخامس من أركان الإسلام وبين الأركان الثّلاثة السّابقة المتقدّمة عليه وهى إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان من زاوية عدد المرّات المكلّف المسلم بأدائها طوال حياته بشأن كلٍّ من هذه الأركان الأربعة يتبيّن أنّ الحجّ هو الرّكن الوحيد المكلّف المستطيع بأدائه مرّةً واحدةً فى حياته وما زاد على المرّة فهو نفل ، بعكس الصّلاة المفروضة فى اليوم واللّيلة خمس مرّات والزّكاة المفروضة بشروطها إذا حال الحول أو حان وقت الحصاد

---

(١) فقه السّنّة ٥٢٨/١

وصوم رمضان وهو شهرٌ واحدٌ فى العام . وإنّ فرض الحجّ مرّةً واحدةً فى العمر كما هو دليلٌ على حاجة الحجّ للصّبر بسبب المشقّة المرتبطة به هو دليلٌ على رحمة البرّ الرّءوف بعباده جلّ وعلا .

الصّفا جمع صفاة ، وهى الصّخرة الملساء[١] وألف الصّفا منقلبة عن واو لقولهم : صفوان ولاشتقاقه من الصّفو وهو الخالص[٢] واشتقاقه من صفا يصفو أى خلص من التّراب والطّين[٣] .

والمروة واحدة المرو[٤] قيل إنّها حجارةٌ بيض برّاقة تكون فيها النّار[٥] ويرى الطبرى[٦] أنّ المروة الحصاة الصّغيرة ويجمع قليلها مروات وكثيرها المُرو مثل تمرة وتمرات وتمر ويقول القرطبىّ[٧] : « والصّحيح أنّ المرو الحجارة صليبها ورخوها الّذى يتشظّى وترقّ حاشيته » .

والصّفا والمروة فى الآية علمان لجبلين معروفين[٨] بمكّة[٩] ولذلك أخرجهما بلفظ التّعريف[١٠] والألف واللاّم لزمتا فيهما للغلبة كهما فى البيت للكعبة والنّجم للثّريا[١١] .

من شعائر الله : من أعلام دينه[١٢] ومن معالمه ومواضع عباداته[١٣] الّتى جعلها تعالى ذكره لعباده معلماً ومشعراً يعبدونه عندها إمّا بالدّعاء وإمّا بالذّكر وإمّا بأداء فرضٍ عليهم من العمل عندها[١٤] وهى جمع شعيرة .

والشّعائر : المتعبّدات الّتى أشعرها الله تعالى أى جعلها أعلاماً للنّاس من المواقف

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/٢٦
(٢) البحر المحيط ١/٤٥٤
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٦١ وانظر البحر المحيط ١/٤٥٤
(٤) البحر المحيط ١/٤٥٤
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٦١
(٦) تفسير الطّبرىّ ٢/٢٦
(٧) تفسير القرطبى ص ٥٦١
(٨) البحر المحيط ١/٤٥٤
(٩) الجلالين
(١٠) تفسير القرطبى ص ٥٦٠
(١١) البحر المحيط ١/٤٥٤
(١٢) الجلالين
(١٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٦١
(١٤) تفسير الطبرىّ ٢/٢٧ .

والسّعى والنّحر . والشِعّار : العلامة . يقال : أشعر الهدى أعلمه بغرز حديدةٍ فى سنامه. من قولك : أشعرت أى أعلمت[١] فمن حجّ البيت أو اعتمر : فمن حجّ البيت أى قصد . وأصل الحجّ القصد . أو اعتمر أى زار ، والعمرة الزّيارة[٢] فغلبا على قصد البيت وزيارته للنّسكين المعروفين[٣] .

فلا جناح عليه : أى لا إثم عليه[٤] والجناح الميل إلى المأثم ثمّ أطلق على الإثم . يقال : جنح إلى كذا جنوحاً مال . ومنه جنح اللّيل ميله بظلمته وجناح الطّائر[٥] ومنه الجوانح للأعضاء لاعوجاجها[٦] .

أن يطّوّف بهما : أصلها يتطوّف[٧] فأدغم التّاء فى الطّاء[٨] قال ابن العربىّ : تحقيق القول فيه ، أى فى قول عائشة فى تبيين المعنى لعروة ، أنّ قول القائل : لا جناح عليك أن تفعل إباحة الفعل . وقوله : لا جناح عليك ألاّ تفعل إباحة لترك الفعل[٩] .

ومن تطوّع خيراً : تطوّع تفعّل من الطّوع وهو الانقياد[١٠] والتّطوّع : ما ترغّب به من ذات نفسك ممّا لا يجب عليك . ألا ترى إلى قوله فى حديث ضمام : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا إلاّ أن تطوّع أى تتبرّع . هذا هو الظّاهر فيكون المراد التّبرّع بأىّ فعل طاعةٍ كان[١١] ويقول الطّبرى[١٢] : « ومن تطوّع بالحجّ والعمرة بعد قضاء حجّته الواجبة عليه فإنّ الله شاكرٌ له على تطوّعه له بما تطوّع به من ذلك ابتغاء وجهه فمجازيه به عليمٌ بما قصد وأراد بتطوّعه بما تطوّع به » .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٦١ وانظر هنا الآفات المفيدة فى تفسير الطّبرى ٢/٢٧

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٦١ ، ٥٦٢

(٣) الكشّاف ١/٢٤٧ وانظر تفسير الطّبرى ٢/٢٧

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٢ والجلالين

(٥) البحر المحيط ١/٤٥٤

(٦) تفسير القرطبى ص ٥٦٢

(٧) الكشّاف ١/٢٤٧ والبحر المحيط ١/٤٥٧

(٨) معانى القرآن للأخفش ١/١٥٣

(٩) انظر تفسير القرطبىّ ص ٥٦٢

(١٠) البحر المحيط ١/٤٥٤

(١١) انظر البحر المحيط ١/٤٥٨

(١٢) تفسير الطّبرى ٢/٣٠

فإن الله شاكرٌ عليم : يقول أبو حيّان العظيم[1] : « وشكر الله العبد بأحد معنيين ، إمّا بالثّواب وإمّا بالثّناء . وعلمه هنا هو علمه بقدر الجزاء الّذى للعبد على فعل الطّاعة أو بنيّته وإخلاصه فى العمل . وقد وقعت الصّفتان هنا الموقع الحسن . لأنّ التّطوّع بالخير يتضمّن الفعل والقصد . فناسب ذكر الشّكر باعتبار الفعل ، وذكر العلم باعتبار القصد . وأخّرت صفة العلم وإن كانت متقدّمةً على الشّكر كما أنّ النّيّة مقدّمة على الفعل لتواخى رءوس الآى ».

تبيّن الآية الكريمة أنّ الصّفا والمروة وهما الجبلان اللّذان يسعى بينهما الحاجّ والمعتمر من شعائر الله تعالى وأعلام دينه ومعالم شرعه ومتعبّداته فمن حجّ البيت الحرام وأدّى الرّكن الخامس من أركان الإسلام أو زار البيت الحرام بقصد العمرة ، فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ولا إثم عليه ولا حرج أن يسعى بين الصّفا والمروة ، خلافاً لمن تحرّج من السّعى بينهما لأنّهما من أمور الجاهليّة أو لأن المشركين قد أدخلوا فى هذه الشّعيرة ما ليس منها فجعلوا على الصّفا صنما سمّوه إسافاً وعلى المروة صنماً سمّوه نائلة ، فجعلوا الذّكر للصّفا الذّكر والأنثى للمروة الأنثى يتمسّحون بهما فى أثناء السّعى ويتبرّكون بهما ، فإنّ ما فعله المشركون بشأن الصّفا والمروة وبشأن السّعى هو امتدادٌ لما فعلوه بشأن حنيفية إبراهيم عليه السلام بعامّة وبشأن الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام بخاصّة من تحريفٍ وتبديل وإتيان أمورٍ ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . وإنّ من تطوّع بخيرٍ وراء الحجّ والعمرة ومن متعلّقاتهما السّعى بين الصّفا والمروة بأن كرّر الحجّ والعمرة مثلا وأكثر من أعمال الخير والبرّ فإنّ الله سبحانه وتعالى شاكرٌ لفاعل الخير صنيعه مثيبه عليه مجازيه بمقدار حسن نيّته وصلاح عمله بمقياس الدّين الحنيف . إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بكلّ شيءٍ يعلم ما توسوس به نفس كلّ إنسان فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله تعالى وأعلام دينه وإنّ السّعى بين الصّفا والمروة من أعمال الحجّ ومن أعمال العمرة كذلك ، وقد شرع الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه

---

(١) البحر المحيط ٤٥٨/١

السّلام أبى الأنبياء هذه الشّعيرة الدّينيّة فسعى إبراهيم عليه السّلام بين الصّفا والمروة وسعت أمّته ، وأمر الله سبحانه وتعالى محمّداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين أن يتّبع ملّة إبراهيم عليه السّلام إمام النّاس مائلاً عن كلّ دينٍ إلى الحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام فسعى المصطفى ﷺ بين الصّفا والمروة وسعت أمّته ، وقال عليه الصّلاة والسّلام : « خذوا عنّى مناسككم » ، وقال : « اسعوا فإنّ الله كتب عليكم السّعى »[١] لقد بيّن الله تعالى أنّ الطّواف بين الصّفا والمروة من شعائر الله ، أى ممّا شرع الله تعالى لإبراهيم عليه السّلام فى مناسك الحجّ ، وقد تبيّن من حديث ابن عباس أنّ أصل ذلك مأخوذٌ من طواف هاجر وترددها بين الصّفا والمروة فى طلب الماء لولدها إسماعيل عليه السّلام لمّا نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السّلام هنالك وليس عندهما أحدٌ من الناس . فلمّا خافت على ولدها الضّيعة هنالك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عزّ وجلّ ، فلم تزل تتردّد فى هذه البقعة المشرّفة بين الصفّا والمروة متذللّةً خائفة وجلةً مضطرّة فقيرةً إلى الله عزّ وجلّ حتّى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرّج شدّتها وأنبع لها زمزم الّتى ماؤها طعام طعم وشفاء سقم[٢] رأى ابن عبّاس قوماً يطوفون بين الصّفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أمّكم أم إسماعيل . قلت : وهذا ثابتٌ فى صحيح البخارى[٣] .

إنّ المؤمن الّذى وفّقه الله تعالى لأداء الحجّ أو العمرة وأكرمه بالطّواف وبالسّعى بين الصّفا والمروة ، عليه وهو يسعى بين الصّفا والمروة أن يتمثّل أمّ إسماعيل عليهما السّلام الرّءوم وهى مقبلةٌ على الله تعالى بقلبها الخاشع ونفسها الخاضعة وعينها الدّامعة وجوارحها المطيعة مندفعةً إلى الصّفا وهى أقرب جبال الأرض إليها مرتقيةً عليها داعيةً الله تعالى ، وقد غاب عنها المعين من الخلق ، أن يفرّج كربتها ويزيل وحشتها وينقذها هى وفلذة كبدها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٩٩/١ وتفسير القرطبى ص ٥٦٤

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٩٩/١

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٦٤ وانظر حديث البخارى وتعليق القرطبىّ فى تفسير القرطبى ص ٣٥٩٧ فى تفسير سورة إبراهيم عليه السّلام .

إسماعيل عليه السّلام من الهلاك المحقّق لنفاد الماء وشدّة وطأة العطش . لقد اتّجهت هاجر عليها السّلام من الصّفا إلى بطن الوادى إلى المروة . ولم يزدها غياب الأنيس إلا إقبالا على الله تعالى الّذى علمت علم اليقين أنّه لن يضيّعها هى ورضيعها . واستمرت أمّ إسماعيل على هذه الحال مرّاتٍ سبعاً وجاءها من الله تعالى الفرج وذهب الكرب بإظهار ماء زمزم فى المكان الّذى فيه إسماعيل بواسطة الملك الّذى ضرب بجناحه الأرض . إنّ على السّاعى بين الصّفا والمروة أن يتمثل حرارة دعاء أمّ إسماعيل الرّءوم وإقبالها الصّادق على الله تعالى وجهدها فى السّعى وفى الدّعاء وثقتها فى إجابة الله تعالى دعاءها وهى المضطرّة وفى كشفه جلّ وعلا السّوء وتداركها وابنها برحمته تعالى وهو البرّ الرّحيم الّذى وسعت رحمته كلّ شىء . إنّ على السّاعى بين الصّفا والمروة أن يتمثّل ذلّ أمّ إسماعيل فى ابتهالها إلى الله تعالى وخضوعها له جلّ وعلا ولجوءَها إليه وحده لا شريك له .

فائدةٌ فقهيّة :

هذه الفائدة الفقهيّة تتعلّق بالابتداء بالصّفا فى السّعى وبحكم السّعى فى الحجّ . روى التّرمذىّ عن جابر أنّ النبىّ ﷺ حين قدم مكّة فطاف بالبيت سبعاً قرأ : ﴿ واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى ﴾ . وصلّى خلف المقام ثمّ أتى الحجر فاستلمه ثمّ قال : نبدأ بما بدأ الله به . فبدأ بالصّفا وقال : إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله . قال : هذا حديثٌ حسنٌ صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم أنّه يبدأ بالصّفا قبل المروة . فإن بدأ بالمروة قبل الصّفا لم يجزه ويبدأ بالصّفا[1] وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطّويل وفيه أنّ رسول الله ﷺ لمّا فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الرّكن فاستلمه ثمّ خرج من باب الصّفا وهو يقول : ﴿ إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله ﴾ . ثمّ قال : « أبدأ بما بدأ الله به » . وفى رواية النّسائى : « ابدءوا بما بدأ الله به »[2] .

« واختلف العلماء فى وجوب السّعى بين الصّفا والمروة فقال الشّافعىّ وابن حنبل :

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٦٣ (٢) تفسير ابن كثير ١/١٩٩

هو ركن ، وهو المشهور من مذهب مالك لقوله عليه السّلام : اسعوا فإنّ الله كتب عليكم السّعى . خرّجه الدّارقطنىّ . فكتب بمعنى أوجب لقوله تعالى : كتب عليكم الصّيام . وقوله عليه السّلام : « خمس صلوات كتبهنّ الله على العباد ..... » وقال أبو حنيفة وأصحابه والثّورىّ والشّعبىّ : ليس بواجب ، فإن تركه أحدٌ من الحاجّ حتّى يرجع إلى بلاده جبره بالدّم لأنّه سنّةٌ من سنن الحجّ . وهو قول مالك فى العتبيّة (١) وروى عن ابن عباس وابن الزّبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنّه تطوّع لقوله تعالى : ﴿ ومن تطوّع خيراً ..... ﴾ وهو ما يأتيه المؤمن من قِبَل نفسه . فمن أتى بشىءٍ من النّوافل فإنّ الله يشكره . وشكر الله للعبد إثابته على الطّاعة . والصّحيح ما ذهب إليه الشّافعىّ رحمه الله تعالى لما ذكرنا وقوله عليه السّلام : خذوا عنّى مناسككم فصار بياناً لمجمل الحجّ . فالواجب أن يكون فرضاً كبيانه لعدد الرّكعات وما كان مثل ذلك إذا لم يتّفق على أنّه سنّة أو تطوّع »(٢) .

وسبق أن تبيّنّا ملاحظة أبى حيان القيّمة بشأن القول : ﴿ ومن تطوّع خيراً فإنّ الله شاكرٌ عليم ﴾ فقد نبّه إلى التّناسب بين التطوّع وبين الشّكر باعتبار الفعل أو العمل ، وإلى التّناسب بين الخير وبين العلم لأنّ الخير من باب النّيّة وهى من جنس العلم . وبالإضافة إلى التّناسب بين كلٍّ من الصّفتين ثمّة التّناسب الموضعىّ لكلّ صفتين متجانستين . وبالله التّوفيق .

الآيــة رقــم (١٥٩)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون ﴾ .

---

(١) كتاب لفقيه الأندلس محمّد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى القرطبىّ المتوفّى سنة ٢٥٤ هـ فى مذهب الإمام مالك نسبت إلى مؤلّفها .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٣

سبب النزول :

عن ابن عبّاسٍ قال : سأل معاذ بن جبل أخو بنى سلمة وسعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل وخارجة بن زيد أخو بنى الحارث بن الخزرج نفراً من أحبار يهود . قال أبو كريب عمّا فى التّوراة . وقال ابن حميد عن بعض ما فى التّوراة فكتموهم إيّاه وأبوا أن يخبروهم عنه فأنزل الله تعالى ذكره فيهم الآية[١] وفى البحر المحيط[٢] : « الآية نزلت فى أهل الكتاب وكتمانهم آية الرّجم وأمر النّبىّ ﷺ . وذكر ابن عبّاس أنّ معاذاً سأل اليهود عمّا فى التّوراة من ذكر النّبىّ ﷺ فكتموه إيّاه فأنزل الله هذه الآية » .

إنّ الّذين يكتمون : الكِتمان سَتْر الحديث . يقال : كتمتُه كَتْماً وكِتمانا[٣] والكاتمون هم أحبار اليهود وعلماء النّصارى وعليه أكثر المفسّرين . وأحبار اليهود كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وابن صوريا وزيد بن التّابوه[٤] .

ما أنزلنا : الّذى أنزلنا[٥] وضمير الصّلة محذوف أى ما أنزلناه[٦] .

من البيّنات : هى الحجج الدّالّة على نبوّته ﷺ[٧] .

والهدى : ما أوضح لهم من أمره فى الكتب الّتى أنزلها على أنبيائهم فقال تعالى ذكره : إنّ الّذين يكتمون النّاس الّذى أنزلنا فى كتبهم من البيان عن أمر محمّدٍ ﷺ ونبوّته وصحّة الملّة الّتى أرسلته بها وحقّيّتها فلا يخبرونهم به ولا يعلمون من تبيينى[٨] ذلك للنّاس وإيضاحى لهم فى الكتاب الّذى أنزلته إلى أنبيائهم أولئك .....[٩]

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/٣٢

(٢) ١/٤٥٨ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٦٥ والّذين كتموا آية الرّجم اليهود . القرطبى .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٢٥ .

(٤) البحر المحيط ١/٤٥٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٣٢ وتفسير القرطبى ٥٦٥ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٢/٣٢ (٦) البحر المحيط ١/٤٥٨

(٧) البحر المحيط ١/٤٥٨ وتفسير الطّبرىّ ٢/٣٢

(٨) فى الأصل : من تبيّنى ذلك للنّاس (٩) انظر تفسير الطّبرىّ ٢/٣٢

من بعدما بيّناه : قرأ الجمهور : بيّناه مطابقةً لقوله : أنزلنا[١] والضّمير المنصوب فى بيّناه عائدٌ على الموصول الّذى هو ما أنزلنا[٢] .

للنّاس فى الكتاب : النّاس هنا أهل الكتاب . والكتاب : التّوراة والإنجيل[٣] ويقول القرطبىّ(٤) : « والكتاب : اسم جنس . والمراد جميع الكتب المنزلة » .

أولئك : جاء بأولئك اسم الإشارة البعيد تنبيهاً على ذلك الوصف القبيح[٥] .

يلعنهم الله : أى يتبرّأ منهم ويبعدهم من ثوابه ويقول لهم عليكم لعنتى كما قال لِلّعين : عليك لعنتى . وأصل اللّعن فى اللّغة الإبعاد والطّرد[٦] .

واللّعنة : الفعلة من لعنه الله بمعنى أقصاه وأبعده وأسحقه[٧] وأبرز اسم الجلالة بلفظ الله على سبيل الالتفات . إذ لو جرى على نسق الكلام السّابق لكان : أولئك يلعنهم . لكن فى إظهار هذا الاسم من الفخامة ما لا يكون فى الضّمير[٨] .

ويلعنهم اللاّعنون : قال قتادة والرّبيع : المراد باللاّعنون الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطيّة : وهذا واضحٌ جارٍ على مقتضى الكلام[٩] .

تبيّن من سبب النّزول أنّ الآية الكريمة تعنى أهل الكتاب عموماً ، اليهود المعاصرين للمصطفى ﷺ خصوصاً لأنّ الأخيرين أتيح لهم أن يعرفوا وجهاً لوجهٍ حقيقة المصطفى ﷺ . والقرآن الكريم يبيّن فى العديد من المواضع أنّ أهل الكتاب يعرفون حقّ المعرفة نعته ﷺ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل . لقد جحد أهل الكتاب فى مجموعهم هذه المعرفة وكتموا نعته ﷺ ووجّهوا آى الكتابين السّماويّين وجهةً أخرى

---

(١) البحر المحيط ٤٥٨/١

(٢) البحر المحيط ٤٥٨/١ وتفسير القرطبىّ ص ٥٦٧

(٣) البحر المحيط ٤٥٨/١ وتفسير الطّبرىّ ٣٢/٢

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٧

(٥) البحر المحيط ٤٥٩/١

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٧

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣٣/٢

(٨) البحر المحيط ٤٥٩/١

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٧ وتفسير الطّبرىّ ٣٤/١ وتفسير ابن كثير ٢٠٠/١ والكشّاف ٢٤٨/١ والبحر المحيط ٤٥٩/١ .

وضلّلوا أقوامهم لأغراضٍ دنيويّة رخيصة وغاياتٍ خسيسة . وإن حظ أحبار اليهود ورهبان النّصارى من كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى هو الأكبر . والآية الكريمة تبيّن مصدر الكتابين السّماويّين التّوراة والإنجيل مستعملةً نون العظمة العائدة إلى الذات العليّة . وإذا كان معنى البيّنات آيات الله تعالى البيّنات وحججه الواضحات فى الكتابين السّماويّين فإنّ معنى الهدى ما أوضحه الله تعالى وبيّنه فى وجيه من نعوت المصطفى ﷺ الّتى تفضى بالواقف عليها الفاهم لها على وجهها إلى اتّباعه ﷺ والاهتداء بهديه واعتناق دين الإسلام الّذى أرسله الله تعالى به ورضيه لعباده . وإنّ الآية الكريمة لتقرّر تبيين الله سبحانه وتعالى تلك الآيات للنّاس وتوضيح تلك المعانى فى تلك الكتب السّماويّة وبخاصّةٍ التّوراة والإنجيل . وكأن الآية الكريمة تريد أن تقول إنّ عامة النّاس لو تركوا وشأنهم وأقبلوا على تلك الآيات البيّنات فى الكتب السّماويّة والمعانى الواضحات دون تدخّل من رجال الدّين الكاتمين للعلم الصّارفين للآيات عن وجهها المؤوّلين للنّصوص حسب أهوائهم وأنفسهم الأمّارة بالسوّء لاستطاع عامّة النّاس بفطرهم المستقيمة الّتى فطرهم الله تعالى عليها أن يتبيّنوا تلك المعانى الواضحة وأن ينتهوا إلى الاهتداء إلى الصّراط المستقيم صراط الله الّذى له ملك السّماوات والأرض . وبهذا يتبيّن أنّ أحبار اليهود ورهبان النّصارى فى المقام الأوّل قد ضلّوا وأضلّوا غيرهم فاستحقّوا أن يلعنهم الله تعالى وأن يلعنهم الملائكة ومؤمنو الثّقلين .

ومعّ أنّ الآية الكريمة تتّجه فى المقام الأوّل إلى أهل الكتابين السّماويّين السّابقين فإنّها وراء ذلك تتّجه إلى كلّ من كتم علماً نافعاً ، ولهذا قيل بشأن الآية الكريمة إنّ المراد كلّ من كتم الحقّ ، فهى عامّةٌ فى كلّ من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه ، وذلك مفسّرٌ فى قوله ﷺ : من سُئِل عن علمٍ يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص . أخرجه ابن ماجة[1] يقول ابو حيّان[2] : « والأَوْلى والأظهر عموم الآية فى الكاتمين وفى النّاس وفى الكتاب وإن نزلت على سبب خاصّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٥

(٢) البحر المحيط ١/٤٥٨

فهى تتناول كلّ من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه ونشره . وذلك مفسّرٌ فى قوله ﷺ : « من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار » . وذلك إذا كان لا يخاف على نفسه فى بثّه . وقد فهم الصّحابة من هذه الآية العموم وهم العرب الفُصُح المرجوع إليهم فى فهم القرآن » عن أبى هريرة قال : لولا آيةٌ من كتاب الله ما حدّثتكم وتلا : ﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعدما بيّناه للنّاس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون ﴾[1] وقال أبو هريرة : لولا آيتان أنزلهما الله فى كتابه ما حدّثت شيئا : ﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات .... ﴾ إلى آخر الآية . والآية الآخرى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس .... ﴾ إلى آخر الآية[2] .

ومع أنّ ظاهر الآية استحقاق اللّعنة على من كتم ما أنزل الله وإن لم يسأل عنه بل يجب التّعليم والتّبيين وإن لم يسألوا[3] فإن ثمّة بعض المبرّرات الّتى يعذر بسببها العالم عن بثّ العلم كأن يخاف على نفسه كما مرّ بنا ، وكأن يخاف العالم عجز الآخرين عن استيعاب بعض العلم كيلا يكون ما لا تبلغه عقولهم سبب فتنتهم . وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال : حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته ، وأمّا الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البُلْعوم . أخرجه البخارىّ . قال أبو عبد الله[4] : البُلعوم . مجرى الطّعام . قال علماؤنا : وهذا الّذى لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل ، إنّما هو ممّا يتعلّق بأمر الفتن والنّصّ على أعيان المرتدّين والمنافقين ونحو هذا ممّا لا يتعلّق بالبيّنات والهدى والله تعالى أعلم[5] وعن عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة . وقال عليه السّلام : « حدّث

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/٣٣ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٠ وفيه : « والذى فى الصّحيح » وتفسير القرطبىّ ص ٥٦٥ والبحر المحيط ١/٤٥٩

(٢) تفسير الطّبري ٢/٣٣

(٣) البحر المحيط ١/٤٥٩

(٤) كنية البخارى رضى الله عنه

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٦

النّاس بما يفهمون . أتحبّون أن يكذّب الله ورسوله » . وهذا محمولٌ على بعض العلوم[١] .

وبحديث أبى هريرة : « من سئل عن علمٍ يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار » استدلّ العلماء على وجوب تبليغ العلم الحقّ وتبيان العلم على الجملة دون أخذ الأجرة عليه[٢] وتحقيق الآية هو أنّ العالم إذا قصد كتمان العلم عصى وإذا لم يقصد لم يلزمه التّبليغ إذا عرف أنّه مع غيره[٣] .

وفى القول : ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون ﴾ نصادف اسم الإشارة الدّالّ على البعد ، وهو بذلك مهيّىء للإبعاد لهم من رحمة الله تعالى فى القول : ﴿ يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون ﴾ وكأنّ اسم الإشارة يبيّن بعدهم عن النّهج القويم والصّراط المستقيم بكتمهم العلم . ونفهم من صيغة الفعل المضارع الدّالّ على تجدّد الفعل « يلعنهم » تجدّد اللّعنة لوجود أسباب تجدّد اللّعنة وتتابعها . وإنّ لفظ الجلالة « الله » قوّةٌ للإبعاد من الرّحمة والطّرد للكاتمين إذ لم يتمّ الاكتفاء باسم الضّمير العائد إلى الذّات العليّة . ويتأكّد تجدّد اللّعنة واستمرارها لتكرّر جملة يلعنهم وذلك فى القول : ﴿ ويلعنهم اللاّعنون ﴾ إنّ كلّ من يصحّ منه اللّعن يلعن أولئك العلماء الّذين يكتمون العلم النّافع .

وفى مقابل اللّعن الّذى يستحقّه الكاتمون هنالك المغفرة الّتى يستحقّها بفضل الله العلماء الّذين يذيعون العلم . وقد جاء فى الحديث : « إنّ العالم يستغفر له كلّ شيءٍ حتّى الحيتان فى البحر »[٤] .

الآيــة رقــم (١٦٠)

قال تعالى : ﴿ إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التّوّاب الرّحيم ﴾.

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٦٥
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٦٥
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٦٦
(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٠٠

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الّذين يكتمون ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى من بعدما بيّنه جلّ وعلا للنّاس فى الكتاب فهم يكتمون ما آتاهم الله تعالى من علم عن عمدٍ وسبق إصرار أولئك يلعنهم الله تعالى ويلعنهم كلّ من يصحّ أن يصدر منه اللّعن من الملائكة ومؤمنى الثّقلين . وفى مقدّمة الّذين يستحقون اللّعن بمعنى الإبعاد والطرد من رحمة الله تعالى يهود المنطقة آنذاك الّذين كتموا نعته ﷺ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة ، بل إنّهم تجاوزوا كتمان هذا النّوع من العلم الجليل النّفع الخطير الأثر إلى القول للكافرين إنّكم يا مشركى مكّة يا من تعبدون الأوثان أهدى من الّذين آمنوا بقيادة المصطفى ﷺ سبيلا . ويلحق باليهود كلّ أهل الكتاب الّذين كتموا العلم ، ويلحق بهم جميعاً كلّ من كتم علماً نافعاً إلى يوم الدّين . وهذه الآية الكريمة التّالية تستثنى من اللّعنة أولئك الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك يتوب الله تعالى التّوّاب الرّحيم عليهم .

إنّ هؤلاء التّائبين قد أقلعوا عن تلك المعصية وندموا على ما فرط منهم فى جنب الله تعالى وعزموا على عدم معاودة الكتمان وأصلحوا الفاسد قديماً من أقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم فعملوا الصّالحات بدل السّيّئات وبيّنوا العلم الّذى وهبه الله تعالى لهم بعد أن كانوا يكتمونه ، وفى مقدّمة العلم الّذى بيّنوا نعته ﷺ الموجود فى كلٍّ من التّوراة والإنجيل والتّصديق به عليه الصّلاة والسّلام والدّعوة إلى دين الإسلام الّذى بعثه الله تعالى به .

إن أولئك التّائبين الّذين عملوا الصّالحات وبيّنوا ما آتاهم الله تعالى من علمٍ يتوب الله تعالى عليهم ، بمعنى أنّه جلّ وعلا يقبل توبتهم وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وهو الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ومن أولئك المستثنين الّذين قبل الله تعالى توبتهم عبد الله بن سلام وذووه من أهل الكتاب الّذين أسلموا فحسن إسلامهم واتّبعوا رسول الله ﷺ[2] .

وكما كانت اللّعنة شاملةً كلّ من كتم علماً ابتداءً بأهل الكتاب فإنّ قبول الله تعالى توبة التّائبين تشمل كلّ تائبٍ آيبٍ إلى الله تعالى .

---

(١) سورة الشّورى ٢٥ (٢) تفسير الطّبرى ٢/٣٥

وعلى غرار استعمال اسم الإشارة « أولئك » الدّالّ على البعد وذلك فى القول : ﴿ أولئك يلعنهم الله ﴾ دليلاً على المدى البعيد للاستقباح . يتمّ هنا استعمال اسم الإشارة ذاته دليلاً هذه المرّة على المدى البعيد للاستحسان ، وذلك فى القول : ﴿ إلا الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ ويعمّق ذلك المدى البعيد للاستحسان التّذييل فى الآية الكريمة الّذى تجىء فيه صيغتان من صيغ المبالغة : ﴿ وأنا التواب الرحيم ﴾ إنّ صيغة فعّال هنا تفيد تتابع قبول الذّات العليّة التّوبة عن العباد وإنّ صيغة فعيل تفيد توالى شآبيب رحمة البرّ الرّحيم الّتى تشمل التّائبين العابدين الحامدين . ومع أنّ قبول الذّات العليّة توبة التّائبين فكيف بتتابع القبول وتواليه من مظاهر رحمة الله تعالى الرّءوف الرّحيم بعباده جلّ وعلا ، فإنّ هذه الرّحمة المفهومة ضمناً قد صرّح بها فى صيغة المبالغة « رحيم » تنبيهاً على رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ وتأكيداً لمعنى الرّحمة المفهوم ضمناً من توبة الله تعالى على عباده . وإنّ التّصريح بتوالى الرّحمة وتتابعها عقب التّصريح بقبول التوبة المتوالى المتتابع يذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل فى سورة الفرقان[1] : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ إنّ رحمة الله تعالى البرّ الرّحيم الواسعة قد تجاوزت قبول توبة التّائب وغفران ذنبه إلى تبديل سيّئات المذنبين حسنات ! : ﴿ لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون ﴾[2]

إنّ على العباد أن يتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً فإنّه جلّ وعلا وحده لا شريك له هو الّذى يقبل التّوبة عن عباده وهو وحده لا شريك له يغفر الذّنوب ويعفو عن السّيّئات . ما أرأفه جلّ وعلا بعباده وما أكرمه سبحانه وتعالى .

الآيــة رقــم (١٦١)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ أولئك عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والنّاس أجمعين ﴾ .

---

(١) الآية ٧٠ (٢) سورة الأنبياء ٢٣

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن قبول الله تعالى توبة التّائبين الّذين أصلحوا نيّاتهم وأقوالهم وأعمالهم وبيّنوا ما آتاهم الله تعالى من علمٍ بعد أن كتموه من ذى قبل فاستحقّوا أن يلعنهم الله تعالى وأن يلعنهم اللاّعنون . وهذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الفريق الآخر المقابل للفريق السّابق فى صفة التّوبة إلى الله تعالى حيث إنّه استمرّ بكفره لنعم الله تعالى وآلائه حتّى توفّاه الله تعالى دون أن يتوب إليه جلّ وعلا توبةً نصوحا . ومن مظاهر الكفر الإشراك مع الله تعالى غيره والكفر بمحمّد ﷺ وكتم نعوته عليه الصّلاة والسّلام على غرار فعلِ كلٍّ من اليهود والنّصارى ، والكفر بنعم الله تعالى وآلائه المتمثّلة فى العلم الّذى وهبه الله تعالى فريقاً من عباده إلى غير ذلك من مظاهر الكفران . إنّ أولئك الّذين كفروا واستمرّوا كافرين حتّى ماتوا أولئك عليهم لعنة الله تعالى والملائكة المقرّبين الّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والنّاس أجمعين .

ويلاحظ أنّنا بصدد اسم الإشارة « أولئك » الدّالّ على البعد والّذى استعمل من قبل فى مناسبةٍ مماثلةٍ دليلاً على الاستقباح البعيد المدى لما أتاه أولئك الكافرون حتّى ماتوا وهم كفّار وعلى الانحراف البعيد المدى عن الطّريق المستقيم والنّهج القويم ، وكلّ ذلك قوّةٌ للبعد الّذى سيصرّح به فى هيئة إبعادهم من رحمة الله تعالى وطردهم وإحلال اللّعنة عليهم . كما يلاحظ فى هذا القول : ﴿ أولئك عليهم لعنة الله ﴾ أنّ لعنة الله تعالى قد استعلت على القوم فهذا الّذى يفيده حرف الجرّ « على » وشملتهم من كلّ جانب وأحاطت بهم واستحوذت عليهم والعياذ بالله . وإنّما كانت اللّعنة عليهم من الله تعالى ابتداءً لأن الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له له الخلق والأمر وحينما يستحقّون لعنة هذا الإلٰه الواحد فذلك دليلٌ على خطورة الذّنب الّذى يرتكبه أولئك الكافرون . لنتمثّل مظهراً واحداً من مظاهر الكفر ولنتأمّل آثاره السّيّئة ونتائجه الخطيرة كى نتبيّن مدى استحقاق أولئك الكافرين الظّالمى أنفسهم والآخرين لتلك اللّعنة والخلود فيها وفى النّار . وليكن ذلك المظهر كتم نعوت المصطفى ﷺ بعد علمٍ وعن عمدٍ وسابق إصرار وتجاوز ذلك إلى الزّعم الّذى جرى على لسان يهود المنطقة آنذاك وقولهم لمشركى قريش عبدة الأوثان . إنّكم يا كفار مكّة أهدى سبيلاً من المؤمنين بقيادة محمّدٍ بن عبد الله ﷺ ! لقد

كان كفّار مكّة يتمنّون من اليهود وهم أهل كتاب مثل هذا الجواب الّذى يوافق أهواءهم ، ولكنّ هذا الجواب من قبل اليهود وهم أهل كتابٍ يجدون فيه نعته ﷺ ويعرفون صدقه وصحّة رسالته يعتبر إحدى الكوارث الجائحة فى حقّ كلٍّ من السّائلين والمجيبين . إنّ السّائلين قد ضلّلهم هذا الجواب فانصرفوا بقوّةٍ أكبر عن الصّراط المستقيم فنال الإسلام والمسلمين منهم بلاءٌ عظيم . وإنّ المسئولين الّذين خانوا أمانة العلم وكتموا ما آتاهم الله تعالى من فضيلة العلم وخالفوا صراحةً وعن عمدٍ وسابق إصرار تعاليم كتابهم السّماوىّ قد استحقّوا حقًّا لعنة الله تعالى والملائكة والنّاس أجمعين . وقد قال تعالى[1] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ .

وقد لحق بلعنة الله تعالى الّذى له الخلق والأمر اللّعنة من الملائكة ومن النّاس أجمعين . وإنّما جاء ذكر الملائكة قبل النّاس لما استقرّ فى النّفوس من منزلةٍ رفيعة لتلك الأجسام النّورانيّة الّتى لا تعصى الله تعالى ما أمرها والّتى تفعل ما أمرها الله تعالى به . وإنّما جاء ذكر النّاس بعد ذلك لأنّ فى النّاس مؤمنين وغير مؤمنين . وإذا كانت اللّعنة على الكافرين وعلى الظّالمين يصحّ أن تصدر من المؤمنين فى الحياتين الأولى والآخرة ، فإنّ اللّعنة من غير المؤمنين إنّما تصدر يوم القيامة حينما يكفر بعض الظّالمين ببعض ويلعن بعض الكافرين بعضاً وقد قال تعالى[2] : ﴿ وقال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم فى الحياة الدّنيا ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النّار ومالكم من ناصرين ﴾ . إنّ اللّعنة الّتى ينزلها يوم القيامة بعض الكافرين ببعض تضاف إلى اللّعنة الّتى تحلّ بهم كفاء كفرهم ، من الله تعالى ومن الملائكة ومن مؤمنى الثّقلين .

والآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ وثيقة بهذه الآية الكريمة .

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧

(٢) سورة العنكبوت ٢٥

الآيــة رقــم (١٦٢)

قال تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم يُنْظرون ﴾ .

خالدين فيها : خالدين فى اللّعنة[١] أو النّار[٢] يقول الزّمخشرىّ[٣] : « خالدين فيها : فى اللّعنة وقيل فى النّار إلاّ أنّها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلا » ويقول أبو حيّان[٤] : « أى فى اللّعنة وهو الظّاهر إذ لم يتقدّم ما يعود عليها فى اللّفظ إلا اللّعنة . وقيل : يعود على النّار ، أضمرت لدلالة المعنى عليها ولكثرة ما جاء فى القرآن من قوله : خالدين فيها وهو عائدٌ على النّار ، ولدلالة اللّعنة على النّار لانّ كلّ من لعنه الله فهو فى النار » .

ولا هم ينظرون : ولا هم يمهلون لتوبةٍ أو معذرة[٥] ويقول الزّمخشرىّ[٦] : « ولا هم ينظرون من الإنظار أى لا يُمْهلون ولا يؤجّلون . أى لا ينتظرون ليعتذروا . أو لا ينظر إليهم نظر رحمة » .

تبيّن أنّ للعلماء رأيين بشأن عودة الضمير المؤنّث المفرد الغائب فى القول : ﴿ خالدين فيها ﴾ فمنهم من ذهب إلى عودة الضّمير إلى اللّعنة لأنّها أقرب مذكور . وفى هذه الحال يكون أولئك الكافرون خالدين يوم القيامة فى اللّعنة فى النّار وبئس القرار . ومنهم من ذهب إلى عودة الضّمير إلى النّار الّتى لم يجر لها ذكر لأنّ الخلود يقترن فى القرآن الكريم فى حقّ الكافرين بنار جهنّم . والحقيقة أنّ كلاًّ من التّفسيرين صحيح ومقبول ولا يوجد فرقٌ حقيقىٌّ بين الرّأيين أو بين التّفسيرين لأنّ الخلود فى اللّعنة إنّما يكون فى النّار ، ولأن الخلود فى النّار امتداد للعنة الكفّار فى الدّنيا بمعنى إبعادهم وطردهم من رحمة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/٣٦ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٠ وتفسير القرطبى ص ٥٧١ والكشّاف ١/٢٤٨ والبحر المحيط ١/٤٦٢

(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/٣٦ والكشّاف ١/٢٤٨ والبحر المحيط ١/٤٦٢

(٣) الكشّاف ٢٤٨

(٤) البحر المحيط ١/٤٦٢

(٥) الجلالين

(٦) الكشّاف ١/٢٤٨

الله تعالى وها هى ذى اللّعنة تطاردهم بدخول جهنّم والعياذ بالله .

ووراء ذلك نحن نميل ، والله تعالى أعلم ، إلى أنّ الضمير يعود الى النّار الّتى من متعلّقاتها اللّعنة . وإنّ لنا على هذا الرّأى دليلين . أحدهما ما نبّه عليه العلماء من كون الخلود فى حقّ الكافرين إنّما هو فى نار جهنّم . وبتدبّر آى الذّكر الحكيم تبيّن أنّ الخلود فى حقّ الكافرين إنّما يرتبط بالنّار وبجهنّم وبالعذاب وبالسّعير ، ولم يحدث ارتباط الخلود مرّةً من المرّات باللّعنة . وما أكثر الآيات الكريمات فى هذا الشّان ، وإنّ هذه الآية الكريمة من سورة فاطر تبيّن ملابسات الخلود فى النّار . قال تعالى[1] : ﴿ والّذين كفروا لهم نار جهنّم لا يُقْضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها . كذلك نجزى كلّ كفور ﴾ .

والدّليل الآخر هو ما نتبيّنه فى القرآن الكريم فى العديد من المواضع من اتّجاه المعنى وجهةً جديدةً لوجود قرينةٍ أو قرائن مهيّئةٍ لهذا التّحوّل فى اتّجاه المعنى ممّا يعتبر مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى فى سورة يس[2] : ﴿ إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ لقد كان للعلماء رأيان بشأن عودة اسم الضمير ، فمنهم من ذهب إلى أنّ اسم الضّمير « هى » يعود إلى الأغلال باعتبارها أقرب مذكور ، ومنهم من ذهب إلى أنّ اسم الضّمير يعود إلى الأيدى على الرّغم من كونها غير مذكورة . ومع أنّ كلاً من الرّأيين صحيحٌ ومقبول إلاّ أنّا نميل إلى كون اسم الضّمير عائداً إلى الأيدى غير المذكورة ، ولكنّ ثمّة قرينةً ترشّح هذا المعنى وتجعله — والله تعالى أعلم — أقرب إلى القبول . أمّا هذه القرينة فهى أنّه بتأمل لفظة الغُلّ ، بضمّ الغين ، وبمحاولة تبيّن ملابسات الغلّ تبيّن أنّ هذا النّوع من القيود مثلّث الأركان ، وفى كلّ مرّةٍ يوجد ركنان يكون فى ذلك دليلٌ أكيدٌ على وجود الرّكن الثّالث وقرينةٌ تقتضى وجود الضلع الثّالث للمعنى . أمّا أركان الغلّ الثّلاثة أو أضلاعه فهى ذلك النّوع المعيّن من القيود ، والأيدى ، والأعناق . إنّ الغلّ ينفرد بين سائر القيود بكونه بطبعه يغلّ اليدين

---

(١) سورة فاطر ٣٦ (٢) الآية ٨

إلى العنق ويشدهما إليه شدّاً . فإذا ذكر الغلّ والعنق فهم وجود اليدين ضمناً ، وإذا ذكر الغلّ واليدان فهم وجود العنق ضمناً قال تعالى[١] : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ﴾ وجاء فى سورة يس قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ وبتمثّل هذا الحال السّيّىء للكافرين يوم القيامة تبيّن أنّ الأغلال حينما وضعت فى أعناق أولئك الكافرين كانت الأيدى هى الّتى شُدَّتْ إلى الأذقان شدًّا وبدورها هى الّتى رفعت الأذقان رفعاً بسبب اقتران اليدين بالعنق فكانت النّتيجة أن ارتفعت رءوس الكافرين وأغمضت أعينهم للخزى وللهول الموقف فكان الواحد منهم فى رفع رأسه مضطرّاً بمثابة البعير المُقْمح الّذى اضطرّ لرفع رأسه عن الماء الّذى لم يستطع أن يشربه بسبب البرد أو بسبب الدّاء فأغمض عينيه . وإنّ هذه الآيات الكريمات من سورة غافر تبيّن طبيعة كلٍّ من الغلّ والسلسلة . قال تعالى[٢] : ﴿ ألم تر إلى الّذين يجادلون فى آيات الله أنّى يُصْرفون . الّذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسّلاسِلُ يُسْحبون . فى الحميم ثمّ فى النّار يسجرون ﴾ .

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله تعالى فى سورة ص[٣] : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنّه أوّاب . إذ عُرِض عليه بالعشىّ الصّافناتُ الجياد . فقال إنّى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّى حتّى توارت بالحجاب ﴾ إنّ الّذى هيّأ للفهم بأنّ الّذى توارت بالحجاب إنّما هى الشّمس هو القرينة المتمثّلة فى ذكر العشىّ المشعر بقرب توارى الشّمس بالحجاب وذلك فى القول : ﴿ إذ عرض عليه بالعشىّ ﴾ إنّه رغم عدم ذكر الشّمس فإنّ القرينة رشّحت مثل هذا النّوع من الفهم ويسّرته وقرّبته .

وبما أنّ الخلود فى حقّ الكافرين إنّما يرتبط فى القرآن الكريم بنار جهنّم ، فلا مانع فى ضوء هذه القرينة من أن ينصرف الخلود إلى نار جهنّم الّتى من متعلّقاتها اللّعنة ، خاصّةً وأنّ الخلود لم يقترن فى القرآن الكريم مرّةً من المرّات باللّعنة بصريح اللّفظ . وبهذا يكون المعنى أنّ الكافرين سوف يكونون خالدين فى نار جهنّم الّتى لا يخفّف عنهم عذابها ولا هم يمهلون لتوبةٍ أو معذرة .

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ .

(٢) سورة غافر ٦٩ — ٦٢

(٣) الآيات ٣٠ — ٣٢

الآيــة رقــم (١٦٣)

قال تعالى : ﴿ وإلـهكم إلـهٌ واحدٌ لا إلـه إلاّ هو الرّحمن الرّحيم ﴾ .

ســبب النّزول :

قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : قالت كفّار قريش : يا محمّد : صف وانسب لنا ربّك فأنزل الله تعالى سورة الإخلاص وهذه الآية . وكان للمشركين ثلاثمائة وستّون صنماً فبيّن الله أنّه واحد(١) .

دار حديث الآيات الكريمات السّابقات حول النّعى على الكاتمين الحق والعلم النّافع والآيات البيّنات ، وهذه الآية الكريمة تبيّن أهمّ ما ينبغى إعلانه وتبيينه وهو حقيقة الإلـه الواحد المعبود بحقٍ وحده لا شريك له جلّ وعلا . ومع أنّ الآية الكريمة نزلت فى مناسبةٍ خاصّةٍ ردّاً على كفّار قريش فإنّ العبرة كما هو مفهومٌ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . وعليه فالآية الكريمة تخاطب كلّ النّاس بأنّ إلـههم المعبود بحقّ هو إلـه واحد لا إلـه إلاّ هو وحده لا شريك له فعلى العباد أن يهجروا الآلهة المعبودة بغير حقّ والّتى لا تخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشورا .

وتقرّر الآية الكريمة صفتين من صفات ذلك الإلـه الواحد المعبود بحقٍ وحـده لا شريك له . وهاتان الصّفتان متعلّقتان بالرّحمة ، أهمّ ما يحتاج إليه الخلائق فى الحياتين الأولى والآخرة ومن ذلك الإرشاد إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم فى آيات الله تعالى البيّنات فى كتابه العزيز الّذى يهدى إلى الطّريقة الّتى هى أقوم ، وهاتان الصّفتان المتعلّقتان بالرّحمة جاءتا فى صيغتى المبالغة فعلان وفعيل ، وهما « الرحمن الرحيم » .

وإذا عرفنا أنّ للذّات العليّة اسماً واحداً هو « الله » وأنّ الأسماء الأخرى تمام التّسعة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٧١ والبحر المحيط ٤٦٢/١

والتّسعين إنّما هى صفات ، فالملاحظ وراء ذلك أنّ « الرّحمن » عظيم صفات الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد . وهذه الصّفة « رحمن » مرتبطةٌ بالرّحمة وكذلك « رحيم » ومع أنّ كلتا اللّفظتين تفيدان المبالغة إلاّ أنّ العلماء فى ضوء القاعدة الّتى تقول : إنّ الزّيادة فى المبنى دليلٌ على الزّيادة فى المعنى[١] قد تبيّنوا زيادة الرّحمة الّتى تتضمّنها صيغة فعلان فانتهوا إلى أن لفظة الرّحمن تدلّ على الرّحمة الواسعة الّتى تشمل كلّ الخلائق ، ومن ثمّ فلا يجوز أن يقال : رحمن ، لغير الله تعالى[٢] أمّا لفظة رحيم فإنّها تدلّ على نوعٍ من الرّحمة خاصٍّ بالمؤمنين وقد قال تعالى[٣] : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ وبهذا يتبيّن أنّ الرّحمن الرّحيم اسمان مشتقّان من الرّحمة على وجه المبالغة . ورحمن أشدّ مبالغة من رحيم[٤] .

والآية الكريمة التّالية تبيّن بعض الأدلّة على هذا الإلٰه الواحد الرّحمن الرّحيم الّذى ليس له نظيرٌ فى ذاته ولا فى صفاته .

الآيــة رقــم (١٦٤)

قال تعالى : ﴿ إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلافِ اللّيل والنّهار والفُلْكِ الّتى تجرى فى البحر بما ينفع النّاس وما أنزل الله من السّماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّةٍ وتصريف الرّياح والسّحابِ المسخّر بين السّماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ .

سـبب النّزول :

عن عطاء قال : نزل على النّبىّ ﷺ بالمدينة : ﴿ وإلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ لا إلٰه إلاّ هو الرّحمن الرّحيم ﴾ . فقال كفّار قريش بمكّة : كيف يسع النّاسَ إلٰهٌ واحد فأنزل الله

---

(١) انظر الكشّاف ١/٣٤
(٢) انظر اللّسان « رحم »
(٣) سورة الأحزاب ٤٣
(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٠

تعالى ذكره : إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار . إلى قوله : لآياتٍ لقومٍ يعقلون . فبهذا يعلمون أنّه إلٰه واحدٌ وأنّه إلٰه كلّ شىءٍ وخالق كلّ شىء[١] .

إنّ فى خلق السّماوات والأرض : إنّ فى إنشاء السّماوات والأرض وابتداعهما . ومعنى خلق الله الأشياء ابتداعه وإيجاده إيّاها بعد أن لم تكن موجودة[٢] قالوا : وجمع السّماوات لأنّها أجناسٌ مختلفة كلّ سماءٍ من جنسٍ غير جنس الأخرى . ووحّد الأرض لأنّها كلّها تراب . والله تعالى أعلم[٣] .

واختلاف اللّيل والنّهار : قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر من حيث لا يعلم . وقيل اختلافهما فى الأوصاف من النّور والظّلمة والطّول والقِصر[٤] ويقول الطّبرىّ[٥] : « يعنى تعالى ذكره بقوله : واختلاف اللّيل والنّهار ، وتعاقب اللّيل والنّهار عليكم أيّها النّاس . وإنما الاختلاف فى هذا الموضع الافتعال من خلوف كلّ واحدٍ منهما الآخر كما قال تعالى ذكره : ﴿ وهو الّذى جعل اللّيل والنّهار خلفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا ﴾ . بمعنى أنّ كلّ واحدٍ منهما يخلف مكان صاحبه ، إذا ذهب اللّيل جاء النّهار بعده ، وإذا ذهب النّهار جاء اللّيل خلفه » .

واللّيل جمع ليلة مثل تمرةٍ وتمر ونخلةٍ ونخل . ويجمع أيضاً ليالى ولياٍل بمعنى[٦] ويقول أبو حيّان[٧] : « اللّيل ، قيل : هو اسم جنس مثل تمرة وتمر . والصّحيح أنّه مفرد ، ولا يحفظ جمعاً لليل » .

والنّهار على ظاهر اللّغة مأخوذ من السّعة فهو من وقت الإسفار إذا اتسع[٨]

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣٧/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٧٢ وتفسير ابن كثير ٢٠٢/١ والبحر المحيط ٤٦٤/١

(٢) تفسير الطبرى ٣٨/٢

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٢ والبحر المحيط ٤٦٤/١

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٢ (٥) تفسير الطّبرىّ ٣٨/٢

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣٨/٢

(٧) البحر المحيط ٤٥٤/١

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٤ وانظر معجم مقاييس اللّغة « نهر » ٣٦٢/٥

وهو الوقت الّذى ينتشر فيه الضّوء . وهو فى الشّرع ما بين طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس . وفى الأصل ما بين طلوع الشّمس إلى غروبها[١] ويقول القرطبىّ : « قلت : والصّحيح أنّ النّهار من طلوع الفجر إلى غروب الشّمس كما رواه ابن فارس فى المجمل ، يدلّ عليه ما ثبت فى صحيح مسلم عن عدىّ بن حاتم قال : لمّا نزلت : حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، قال له عدىّ : يا رسول الله إنّى أجعل تحت وسادتى عقالين ، عقالاً أبيض وعقالاً أسود أعرف بهما اللّيل من النّهار . فقال رسول الله ﷺ : إنّ وسادك لعريض ، إنّما هو سواد اللّيل وبياض النّهار . فهذا الحديث يقضى أنّ النّهار من طلوع الفجر إلى غروب الشّمس وهو مقتضى الفقه فى الأيمان وبه ترتبط الأحكام » .

والفلك : السّفن . وإفراده وجمعه بلفظٍ واحد ويذكّر ويؤنّث[٣] « والفلك المفرد مذكّر . قال الله تعالى : فى الفُلْك المشحون . فجاء به مذكّراً . وقال : والفلك الّتى تجرى فى البحر . فأنّث ، ويحتمل واحداً وجمعاً . وقال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ، فجمع ، فكأنّه يذهب بها إذا كانت واحدةً إلى المركب فيذكّر ، وإلى السّفينة فيؤنّث ..... وأصله من الدّوران ومنه : فَلَكُ السّماء الّذى تدور عليه النّجوم . وفلّكت الجارية استدار ثديها ، ومنه فلكةُ المِغْزل »[٤] وفلكة الجارية استدرار نهدها[٥] .

وسمّيت السّفينة فُلْكاً لأنها تدور بالماء أسهل دور[٦] وأوّل من عملها نوحٌ عليه السّلام كما أخبر تعالى . وقال له جبريل : اصنعها على جؤجؤ[٧] الطّائر . فعملها نوحٌ عليه السّلام وراثةً فى العالمين بما أراه جبريل . فالسّفينة طائرٌ مقلوب . والماء فى أسفلها

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٥٠٧

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٣ وانظر البحر المحيط ١/٤٥٤

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٣٨

(٤) تفسير القرطبىّ ٥٧٤ وانظر كتاب أسرار العربيّة لأبى البركات الأنبارى ٦٤ باب جمع التّكسير .

(٥) البحر المحيط ١/٤٥٥

(٦) تفسير القرطبى ص ٥٧٤

(٧) جؤجؤ الطّائر : عظام صدر الطّائر

نظير الهواء فى أعلاها . قاله ابن العربىّ[١] .

بما ينفع الناس : أى بالّذى ينفعهم من التّجارات وسائر المآرب التى تصلح بها أحوالهم[٢] .

من ماء : وهو المطر الّذى ينزله الله من السّماء[٣] .

وبثّ فيها : أى فرّق ونشر[٤] .

ودابّة : تجمع الحيوان كلّه[٥] وفعله دبّ يدبّ وهذا قياسه لأنّه لازم . وسمع فيه يدُبّ بضمّ عين الكلمة[٦] ويقول الطبرىّ[٧] « والدّابّة اسمٌ لكلّ ذى روحٍ كان ، غير طائر بجناحيه لدبيبه على الأرض » والهاء فى الدّابة للتّأنيث ، إمّا على معنى نفسٍ دابّة وإمّا للمبالغة لكثرة وقوع هذا الفعل : وتطلق على الذّكر والأنثى[٨] .

التّصريف : مصدر صرف . ومعناه راجعٌ للصّرف وهو الرّدّ . صرفت زيداً عن كذا رددته[٩] وتصريف الرّياح : إرسالها عقيماً ومُلْقِحةً وصِرّاً ونَصْراً وهلاكاً وحارّةً وباردة ولَيّنةً وعاصفة . وقيل : تصريفها إرسالها جنوباً وشمالاً ودبوراً وصَباً ونكباء ، وهى الّتى تأتى بين مهبّى ريحين[١٠] .

والرّياح جمع ريح جمع تكسير ، وياؤه واو لأنّها من راح يروح ، وقلبت ياءً لكسرة ما قبلها . وحين زال موجب القلب وهو الكسر ظهرت الواو قالوا : أرواح كجمع الروح[١١] والرّيح جسم لطيفٌ شفّاف غير مرئىّ[١٢] وسمّيت ريحاً لأنها تأتى بالرّوح غالباً .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٤ والبحر المحيط ٤٦٥/١

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٦ وانظر البحر المحيط ٤٦٥/١

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣٩/٢

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٦ والبحر المحيط ٤٥٥/١

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٦ (٦) البحر المحيط ٤٥٥/١

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣٩/٢ (٨) البحر المحيط ٤٥٥/١

(٩) البحر المحيط ٤٥٥/١ وفى المفردات ٢٧٩ « وتصريف الرّياح هو صرفها من حالٍ إلى حال » .

(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٧ وانظر البحر المحيط ٤٦٧/١ والكشّاف ٢٤٨/١

(١١) البحر المحيط ٤٥٥/١ (١٢) البحر المحيط ٤٦٧/١

روى أبو داود عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ وسلّم يقول : الرّيح من روح الله تأتى بالرّحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبّوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرّها[١] وفى صحيح مسلم عن ابن عبّاس عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : نُصِرْت بالصّبا وأهلكت عادٌ بالدّبور[٢] وجاءت فى القرآن مجموعةً مع الرّحمة مفردةً مع العذاب إلاّ فى يونس فى قوله : ﴿ وجرين بهم بريحٍ طيّبة ﴾ . وفى الحديث : اللّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً . قال ابن عطيّة : لأنّ ريح العذاب شديدةٌ ملتئمة الأجزاء كأنّها جسمٌ واحد . وريح الرّحمة ليّنة متقطّعة فلذلك هى رياح[٣] فأفردت مع الفلك فى يونس لأنّ ريح إجراء السّفن إنّما هى ريحٌ واحدة متّصلة . ثمّ وصفت بالطّيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب[٤] .

السّحاب : اسم جنس المفرد سحابة[٥] وسمّى سحاب لانسحابه فى الهواء[٦] كما يقال حبىّ لأنّه يحبو . قاله أبو علىّ[٧] .

المسخّر : المذلّل[٨] والتّذليل جعل الشّئ داخلاً تحت الطّوع . قال الرّاغب : التّسخير : القهر على الفعل ، وهو أبلغ من الإكراه[٩] روى مسلمٌ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النّبىّ ﷺ قال : « بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتاً فى سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحّى ذلك السّحاب فأفرغ ماءه فى حرّة ، فإذا شَرْجة[١٠] من تلك الشّراج قد استوعبت ذلك الماء كلّه فتتبّع الماء فإذا رجلٌ قائمٌ فى حديقته يحوّل الماء بمسحاته فقال له : يا عبد الله : ما اسمك قال : فلانٌ للاسم الّذى سمع فى السّحابة فقال له يا عبد الله : لم تسألنى عن اسمى . فقال : إنّى سمعت صوتاً فى السّحاب الّذى هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال : أمّا إذْ قلت هذا فإنّى أنظر إلى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٧ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٧
(٣) البحر المحيط ٤٦٧/١ وتفسير القرطبى ص ٥٧٨
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٧٩ (٥) البحر المحيط ٤٥٥/١
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٠ وانظر تفسير الطبرىّ ٣٩/٢
(٧) البحر المحيط ٤٥٥/١ (٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٠
(٩) البحر المحيط ٤٥٦/١ (١٠) شرجة : طريق الماء ومسيله

ما يخرج منها فأتصدّق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأردّ فيها ثلثه . وفى رواية وأجعل ثلثه فى المساكين والسّائلين وابن السّبيل »(١)

لآياتٍ لقومٍ يعقلون : روى عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : « ويلٌ لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها »، أى لم يتفكّر فيها و لم يعتبرها(٢) .

نودّ بين يدى تأمّلنا للآية الكريمة أن نتأمّل نظمها المعجز وترتيب حبّات المعنى ترتيباً عجيباً فريدا . فى تعداد الآية الكريمة الآيات المحسوسة الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وعلى قدرته جلّ وعلا تبدأ بأكبر خلق الله تعالى ، بالسّماوات والأرض ، وتقدّم فى الذّكر السّماوات وفى صيغة الجمع لأنّها هى الأكبر ، وتردف بالسّماوات والأرض اللّيل والنّهار ، باعتبار الظّلمات والنّور قادرين على ملء السّماوات والأرض ، وقدّم اللّيل على النّهار باعتبار اللّيل هو السّابق وجوداً ولأنّ الظّلام هو الأصل . وبما أنّ الاتّجاه من أعلى أعنى السّماوات إلى أسفل أعنى الأرض ، وبما أنّ أكثر الأرض ماء ، فقد كان ثمّة تحوّلٌ بعد اللّيل والنّهار الأكثر شمولاً من أىّ شىءٍ آخر إلى الأرض من زاوية جزئها الأكبر أعنى الماء ، ومن زاوية مائها المِلْح باعتباره الأوسع والأكبر والأكثر ولهذا جاءت لفظة البحر الّتى تعنى الماء المِلح أصلاً والماء العذب الفرات تبعاً . ولمّا كان الحديث عن هذه الآيات المادّيّة المحسوسة ليس من زاوية كونها آياتٍ فحسب بل من زاوية النّفع فى المقام الأوّل فأنت ما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوت وكلّ شئ خلقه الله تعالى بقدر ، فقد كان الحديث عن الماء الواسع الكثير الملح ابتداءً من زاوية النّفع المباشر للنّاس وذلك فى هيئة السّفن الّتى تمخر عباب البحار والمحيطات . وبما أنّ للماء المِلْح شقّاً آخر هو الماء العذب الفرات النّازل من السّماء والّذى ينتفع به شقّ الأرض الآخر اليابس وللمخلوقات علاقاتٌ ألصق باليابس ، فقد كان ثمّة تحوّلٌ إلى الماء النّازل من السّماء على هذا الجزء اليابس من الأرض فى المقام الأوّل ، ذلك الجانب الّذى يحيا بالماء العذب الفرات بعد موته . وبما أنّ الخلائق تعيش على هذا الماء العذب الفرات وتنتشر ، فقد كان ثمّة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٠

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٨١ والكشّاف ٢٤٨/١ والبحر المحيط ٤٦٨/١

حديث عن كلّ ما يدبّ على الأرض من مخلوقاتٍ لله تعالى تحيا بهذا الماء الّذى جعل الله منه كلّ شئ حىّ .

وبما أنّ الماء النّازل من السّماء إنّما ينزل بإرادة الله تعالى بفعل الرّياح الّتى يرسلها الله تعالى لواقح للسّحاب إضافةً إلى ما سخر الله سبحانه وتعالى الرّياح من أجله ، فقد كان ثمّة حديثٌ عن تصريف الرّياح وعن السّحاب المسخّر بين السّماء والأرض .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ فى ذلك كله آيات لقومٍ يعقلون ، بمعنى أنّهم يستعملون نعمة العقل الّتى امتنّ الله سبحانه وتعالى بها عليهم استعمالاً صحيحاً .

تبدأ الآية الكريمة بذكر خلق الله تعالى السّماوات والأرض لأنّ هذه الآية كبرى آيات الله تعالى الدّالّة على وحدانيّته وعلى قدرته جلّ وعلا . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ لخلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ وقد جاء ذكر السّماوات فى صيغة الجمع لأنّ ثمّة سبع سماواتٍ طباقا ، وجاء ذكر الأرض فى صيغة المفرد لأنّها ترابٌ كلّها ويستوى فى ذلك قشرة الأرض وقاع الماء . وإذا كان المفهوم من هذه الآية الكريمة فى سورة الطّلاق[2] : ﴿ الله الّذى خلق سبع سماواتٍ ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيءٍ قديرٌ وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً ﴾ أنّ ثمّة سبع أرضين فمن الجائز أن يفهم أنّ الأرض طباقٌ على غرار السّماء . ومن الجائز أن ينظر إلى الكتل اليابسة فى ضوء الاكتشافات العلميّة الّتى غطّت قشرة الأرض كلّها كى نتبيّن أنّها تكاد تكون سبع كتلٍ يابسة ، منها العالم القديم ومنها العالم الجديد ، آسيا وأفريقيا وأوروبّا والأمريكتان وأستراليا والقارّة القطبيّة الجنوبيّة . وليس بخافٍ اتّصال بعض هذه الكتل ببعضها الآخر كاتّصال أوربّا بآسيا واتّصال الأخيرة بأفريقيا لولا الفاصل المائىّ الاصطناعىّ الّذى يصل البحرين الأبيض والأحمر ببعضهما أعنى قناة السّويس . والحقيقة أنّا نميل إلى كون الأرضين سبعاً طباقاً على غرار السّماوات السّبع الطّباق ولا مانع من الاستئناس بالرّأى الآخر .

---

(١) سورة غافر ٥٧ (٢) الآية ١١

والحديث عن السّماوات والأرض من زاويتين اثنتين من زاوية كونهما آيتين دالّتين على وحدانيّة الله تعالى وقدرته على غرار سائر الآيات الّتى ذكرتها الآية الكريمة ، ومن زاوية جمع كلّ آيةٍ من هذه الآيات بين حظّيها الموفورين من الحقيقة والجمال معاً .

أمّا دلالة هاتين الآيتين على وحدانيّة الله تعالى وقدرته المطلقة ، فما الّذى يمكن أن يقال بأكثر من كون الشّموس والكواكب والنّجوم والمجرّات الّتى تتألف منها السّماوات وكذلك الأرض ذاتها هى معلّقةٌ كلّها فى الفضاء بيد القدرة الإلٰهيّة ، فليس ثمّة عمدٌ من تحتها ، وليس ثمة علاقةٌ من فوقها . وما الّذى يمكن أن يقال بشأن حظّ هذه السّماوات وكذلك الأرض من الدّقة والنظام بأكثر من قول بعض علماء هذا الفنّ بأنّ احتمال اصطدام أربع ذبابات تنطلق كلّ واحدة من أقصى ركنٍ فى الكرة الأرضيّة أكثر من احتمال اصطدام كوكبٍ واحدٍ بآخر من بين ما لا يحصيه إلاّ الله تعالى من كواكب . وما الّذى يمكن أن يقال عن تسخير الله سبحانه وتعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض لجنس الإنسان ، وعن جمع هذا الكون بدرجةٍ عجيبةٍ من التّكامل والتّوازن بين الحقيقة والجمال . إنّ السّماء مثلاً متينةٌ وجميلة . وقد قال تعالى[1] : ﴿ والسّماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ إنّا زينا السّماء الدّنيا بزينةٍ الكواكب . وحفظاً من كلّ شيطانٍ مارد . لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كلّ جانب . دحوراً ولهم عذابٌ واصب . إلاّ من خَطِفَ الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب ﴾ والله سبحانه وتعالى سخّر لنا ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً منه . قال تعالى[3] : ﴿ ألم تَرَوا أن الله سخّر لكم ما فى السّماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة . ومن النّاس من يجادل فى الله بغير علمٍ ولا هدًى ولا كتاب منير ﴾ وقال تعالى[4] : ﴿ الله الّذى سخّر لكم البحر لتجرى الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون . وسخّر لكم ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً منه . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ والله سبحانه وتعالى هيّأ الأرض كى تكون صالحةً لأن يسكنها الإنسان . جاء فى سورة

---

(١) سورة الذّاريات ٤٧
(٢) سورة الصّافات ٦ ــ ١٠
(٣) سورة لقمان ٢٠
(٤) سورة الجاثية ١٢ ، ١٣

فصّلت[١] قوله تعالى : ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين . ثمّ استوى إلى السّماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها ، وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . وهذه الأرض الّتى هيّأتها العناية الإلٰهيّة كى يسكنها الإنسان لها حظٌّها الموفور من الجمال والجلال قال تعالى[٢] : ﴿ ألم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها . ومن الجبال جُدَدٌ[٣] بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيب سود . ومن النّاس والدّوابّ والأنعامِ مختلفٌ ألوانه كذلك . إنّما يخشى الله من عباده العلماء . إنّ الله عزيزٌ غفور ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرا ﴾[٤] وأنت ﴿ ما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوت ﴾[٥] .

ثمّ تتحدّث الآية الكريمة عن أكبر مظهرٍ ناتجٍ عَنْ خلق الله تعالى السّماوات والأرض وأثرٍ ناجمٍ عن إبداعهما وإيجادهما على غير مثالٍ سابق ألا وهو اختلاف اللّيل والنّهار . ونستطيع أن ننظر إلى هذا الاختلاف من زوايا مختلفة وجوانب متعدّدة . ومن هذه الجوانب أن يخلف كلٌّ منهما الآخر وقد قال تعالى[٦] : ﴿ وهو الّذى جعل اللّيل والنّهار خلفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكوراً ﴾ ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قد محا آيةَ اللّيل فكانت مظلمة وجعل آية النّهار منيرةً مبصرة وقد قال تعالى[٧] : ﴿ وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السّنين والحساب . وكلّ شيءٍ فصّلناه تفصيلا ﴾ واللّيل والنّهار يختلفان بالتّناوب طولاً وقصراً وقد يتساويان . قال تعالى[٨] : ﴿ ألم تر أنّ الله يولج اللّيل فى النّهار ويولج النّهار فى اللّيل

---

(١) الآيات ٩ — ١٢ (٢) سورة فاطر ٢٧ ، ٢٨

(٣) جددٌ جمع جُدَّة وهى الطّريق الظّاهر فى الجبل وغيره . انظر مفردات الرّاغب والجلالين .

(٤) سورة الفرقان ٢ (٥) سورة الملك ٣

(٦) سورة الفرقان ٦٢ (٧) سورة الإسراء ١٢

(٨) سورة لقمان ٢٩ ، ٣٠

وسخّر الشّمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجلٍ مسمًّى وأنّ الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنّ ما يدعون من دونه الباطل وأنّ الله هو العليّ الكبير ﴾ والله سبحانه وتعالى جعل اللّيل ساتراً بسواده فهو فى العادة وقت النّوم السّبات الرّاحة للأبدان ، وجعل النّهار وقتاً للمعايش ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ وجعلنا اللّيل لباساً . وجعلنا النّهار معاشاً ﴾ وتبدو رحمة الله سبحانه وتعالى بالخلق بأن جعل اللّيل والنّهار من جهة الطبيعة والطّول المحقّقين للضّرب فى الأرض ابتغاء فضل الله تعالى وللرّاحة حينما نتأمّل مثل قوله تعالى[2] : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة من إلٰهٌ غير الله يأتيكم بضياءٍ ، أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النّهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلٰه غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه ، أفلا تُبْصرون . ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ﴾ .

وإنّ من أقرب الوسائل تناولاً لبيان فضل الله تعالى علينا فى جعل اللّيل والنّهار مختلفين على النّحو الّذى تبيّنا أن يتأمّل الواحد منا عدد ساعات اليوم الواحد الّتى اصطلحنا على جعلها أربعاً وعشرين ساعة وأن يتعمّق توزيع هذه السّاعات على أهم الأعمال خلال اليوم من عملٍ ونومٍ وأعمالٍ أخرى تأخذ بعض حظها من العمل والرّاحة على السّواء . لقد اصطلحنا على أن يعمل الواحد منّا ثمانى ساعات وأن ينام ثمانى ساعات وما بقى من ساعاتٍ ثمانٍ هى موزّعة بين خفيف الرّاحة وخفيف العمل ، فليس ثمّة راحةٌ تامّة كالّتى تنال فى النّوم . وليس ثمّة عملٌ صارم . ما أوفى مثل هذه القسمة بالغرض وما أقدرها على الاندراج تحت مثل قوله تعالى[3] : ﴿ وجعلنا اللّيل لباساً وجعلنا النّهار معاشا ﴾ وكى يبدو هذا الوفاء بالغرض أشدّ وضوحاً لنتحوّل إلى بعض الأجزاء النّائية من الكرة الأرضيّة والّتى يتفاوت فيها مثلاً طول اللّيل والنّهار طولاً بيّنا بحيث إنّه يصعب على المسلمين أن يصوموا شهر رمضان بسبب الطّول المفرط للنّهار حتّى ليكاد الشّهر يتحوّل نهاراً

---

(١) سورة النّبأ ١٠ ، ١١ .
(٢) سورة القصص ٧١ ــ ٧٣ .
(٣) سورة النّبأ ١٠ ، ١١

موصولاً . إن مثل هذه الحال توجد بفضل الله تعالى فى بعض الأماكن من الكرة الأرضيّة كى يقوم العباد بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه الّتى لا تُحْصى ومن بينها نعمة اختلاف اللّيل والنّهار طولاً وقصراً بصورةٍ يتحقّق معها الخير والجمال .

وتتحدّث الآية الكريمة بعد السّماوات والأرض واللّيل والنّهار عن أكبر آيةٍ فى الأرض ألا وهى الماء من زاوية مائها المِلْح ابتداءً والمتمثّل فى البحار والمحيطات ويلحق بذلك الماء العذب الفرات فى الأنهار والبحيرات . وإنّ الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن آيات الله تعالى من زاوية الدّلالة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته ومن زاوية النّفع ، تنظر إلى البحر ، الّذى روعى فى إطلاق هذا اللّفظ عليه صفة السّعة فى المكان والجمع للماء الكثير[1] من زاوية مظهر النّفع منه الّذى لا تكاد تخطئه كلّ عين والّذى يتبادر إلى كلّ ذهن ، وهذا المظهر هو السّفن الّتى تجرى فوق سطح الماء ماخرةً عبابه . إنّ الحديث عن آية البحر قد راعى العديد من الجوانب وحقّق الكثير من الأغراض . لقد حقّق الحديث عن البحر ظاهرة التّدرّج الملموس فى ترتيب الآية الكريمة للآيات الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته من حيث الضّخامة . وبما أنّ ضخامة مساحة الماء تأتى من زاويتى المِلْح الأجاج والعذب الفرات وتتقدّم زاوية الملح زاوية العذب ، فقد كان لمراعاة الضّخامة فى ترتيب الآيات دورها فى انصراف الذّهن إلى الماء الملح وفى انصراف الذّهن إلى ضخام السّفن الّتى تجرى فى البحر كالأعلام ، أى كالجبال . وإنّ تمثّل الجبال الّتى تبدو السّفن فى هيئتها ينبّه الإنسان إلى الدّليل القوىّ على وحدانيّة الله تعالى وقدرته حيث إنّ سفناً كالجبال موقرةً بأحمالها تقف فوق الماء الّذى لا يستطيع هو ذاته بإرادة الله تعالى أن يمنع أصغر حصاة من الغوص والاستقرار فى قاعه . لا بل إنّ السّفينة تمشى ، لا بل إنّ السّفينة تجرى . وحينما تقوى السّفينة على الجرى ، فهى من باب الأولى قادرةٌ على المشى البطىء وعلى الوقوف . إنّ كلّ ذلك إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى .

ومع أنّ السّفينة تجرى فوق الماء لأغراضٍ شتّى ، ولمّا كان القصد أنّ يجمع ذكر الآيات بين الدّلالة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته المطلقة جلّ وعلا وبين تحقيق الخير

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٣٧

للإنسانية ، فقد كان الحديث عن جرى السّفن فوق الماء من زاوية أجلّ الأهداف وأسماها ألا وهو نفع النّاس ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ﴾ وبهذا يتحقّق الانسجام مع تسخير الله تعالى كلّ ما فى هذا الكون لجنس الإنسان .

وإنّ ذكر لفظة الفلك بالذّات ممّا يسعف على إظهار الآية فى صورة أشدّ جلاءً لأنّ الصّفة التّى روعيت فى إطلاق لفظ الفلك سهولة دورانها فوق الماء . وحينما يسهل الدّوران وهو الأصعب يتحقّق بسهولةٍ أشدّ ما يقلّ عن الدّوران من توجيهٍ للسّفن بأقلّ مجهودٍ وأيسره . ويستوى فى ذلك صغار السّفن وكبارها الّتى تضاهى بضخامتها وثقلها وثقل أحمالها الجبال ضخامةً وثقلاً ورسوخاً . إنّ الفلك بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له تطفو فوق الماء الّذى سخّره الله سبحانه وتعالى للإنسان ومن مظاهر ذلك التّسخير أن يحمل ضخام السّفن وهو الّذى يعجز بإرادة الله تعالى عن أن يحول بين أصغر حصاة وبين أن تستقرّ فى أعماقه وقاعه .

وتذكّر الآية الكريمة النّاس كلّ النّاس ، ومن هؤلاء المؤمن ومن هؤلاء الكافر . أما آن للكافر أن يعود إلى بارئه جلّ وعلا وأن يشكر له جلّ وعلا نعمه وآلاءه الّتى لا تحصى ومن ذلك نعمة جرى الفلك فوق الماء وأن يستغفر الله تعالى من ذنبه وأن يتوب إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً ويعمل صالحا ؟ .

ولمّا كانت الفلك تجرى فى الماء العذب الفرات ، فى الأنهار والبحيرات كما تجرى فى الماء المِلحْ ، ولمّا كان الماء العذب الفرات يشكّل الشّقّ الثّانى من نوعى الماء ولمّا كان هذا الماء العذب الفرات تظهر آثاره فى الشّقّ الثّانى من نوعى الأرض أعنى اليابس ، لذا كان ثمة تحوّل إلى الحديث عن آية الله سبحانه وتعالى الدّالّة على وحدانيّته جلّ وعلا وقدرته من زاوية هذا الماء العذب الفرات الّذى يقلّ كمّيّةً عن الماء المِلح الأُجاج ، ومن زاوية أثره فى اليابس الّذى يقلّ هو الآخر حجماً عن حجم الماء المِلْح الأجاج المتمثّل فى البحار والمحيطات . ويلاحظ مراعاة السّياق للتّدرّج من حيث الحجم أو الكمّيّة ، فالسّماوات

---

(١) سورة الرّوم ٤٦

والأرض هى الأكبر ، فالليل والنهار ، فالبحار والمحيطات ، فاليابس الذى تتدفق فيه الأنهار وتتلاطم البحيرات .

ولمّا كان الموقف يتعلّق بتعداد النِعم وإظهار النفع إضافةً إلى إعطاء الأدلة وتقديم البراهين فقد كان الحديث عن آيتى الماء العذب الفرات واليابس من زاوية مصدر هذا الماء العذب الفرات ، ألا وهو السّماء ، ومن زاوية أكبر آثار هذا الماء فى الأرض وأكثرها نفعاً للنّاس ألا وهى إحياء الماء النّازل من السّماء بإرادة الله تعالى الأرض الميتة . والآية الكريمة تبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى أنزل من السّماء ماءً . ونستطيع أن نفهم أنّ السّماء هى المصدر الوحيد لنزول الماء العذب الفرات بعد أن تتمّ بإرادة الله تعالى عمليتا تبخير الماء بالحرارة وتكثيفه بالبرودة فى طبقات الجوّ العليا . وهذا الماء العذب الفرات حينما ينزل من السّماء فتسيل الأودية بقدرها منه . وقد جاء فى سورة الرّعد[1] قوله عزّ من قائل : ﴿ أنزل من السّماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها فاحتمل السّيل زبداً رابياً ، وممّا يوقدون عليه فى النّار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله ، كذلك يضرب الله الحقّ والباطل . فأما الزّبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ وهذه المياه هى الّتى تسيل بها الأوديّة وتجرى منها الأنهار وتتدفّق البحيرات وتتفجّر العيون وتمتلىء الآبار ، وإذا كانت الأرض خصبة صالحةً للحرث والزّرع آتت أكلها وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج . قال تعالى[2] ﴿ أمّن خلق السّماواتِ والأرضَ وأنزل لكم من السّماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإلـٰهٌ مع الله . بل هم قومٌ يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً . أإلـٰه مع الله . بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السّماء ماءً فسلكه ينابيع فى الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانُهُ ثم يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يجعله حطاماً . إنّ فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ وقال تعالى[4] : ﴿وأنزلنا من السّماء ماءً بقدرٍ فأسكنّاه فى الأرض وإنّا على ذهابٍ به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنّاتٍ

---

(١) الآية ١٧
(٢) سورة النّمل ٦٠ ، ٦١
(٣) سورة الزّمر ٢١
(٤) سورة المؤمنون ١٨ — ٢٠

من نخيلٍ وأعنابٍ لكم فيها فواكه كثيرةٌ ومنها تأكلون . وشجرةً تخرج من طور سيناء تنبت بالدّهن وصبغٍ للآكلين ﴾ وقال تعالى[١] : ﴿ الله الّذى يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السّماء كيف يشاء ويجعله كِسَفًا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إنّ ذلك لمحيى الموتى وهو على كلّ شيءٍ قدير . ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرًّا لظلّوا من بعده يكفرون ﴾ إلى غير ذلك من آيات كريمات . وتقف البشرية خائفةً وجلة أمام مثل هذه الآية الكريمة من سورة الملك[٢] : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين ﴾ .

إنّ الآية الكريمة فى حديثها عن آيتى الماء العذب والأرض نبّهت إلى النّقطة المهمّة الّتى تنطلق منها عجلة الخير وتتتابع قطراته وينهمر فيضه وهى نقطة إحياء الماء الأرض الميتة . وحينما تهتزّ الأرض وتربو وتنبت من كلّ زوجٍ بهيج ونوع بديع يكون فى ذلك الخير لكلّ ذى روحٍ من عالمى الإنسان والحيوان وقد قال تعالى[٣] : ﴿ وهو الّذى أرسل الرّياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السّماء ماءً طهورا . لنحيى به بلدةً ميتاً ونُسْقِيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيرا ﴾ وقد تحدثت الآية الكريمة عن الثّمرة فى هيئة ما بث الله سبحانه وتعالى بسبب المطر فى الأرض من كلّ دابةٍ . وبهذا يترتّب على إنزال الله تعالى الماء من السّماء أمران مهمّان يمثّلان المقدّمة والنّتيجة ، البداية والنّهاية . أمّا البداية فهى إحياء الأرض بعد موتها ، وأمّا النّهاية فما ترتّب على ذلك الإحياء من نشر الله سبحانه وتعالى من كلّ دابةٍ انتهاءً بقمّة القمم الإنسان الّذى كرّمه الله تعالى وحمله فى البرّ والبحر ورزقه من الطّيّبات وفضله جلّ وعلا على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلا . قال تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السّماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة ﴾ وإنّ هذه الآيات الكريمات من سورة النّور من أكثر آى الذّكر الحكيم إسعافاً على تمثّل جوانب هذا الأمر وأبعاده . قال تعالى[٤] : ﴿ ألم تر أنّ الله يزجى سحاباً ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله رُكاماً

---

(١) سورة الرّوم ٤٨ — ٥١ .
(٢) الآية ٣٠
(٣) سورة الفرقان ٤٨ ، ٤٩
(٤) سورة النّور ٤٣ — ٤٥

فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السّماء من جبالٍ فيها من بردٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلّب الله اللّيل والنّهار ، إنّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار . والله خلق كلّ دابّةٍ من ماءٍ ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

والآية الكريمة تنصّ على كلّ الدّوابّ بلا استثناء . وليس بخافٍ لطف التّرابط بين جنس الماء والدّوابّ ، فالله سبحانه وتعالى خلق كلّ دابة من ماء ، ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل من الماء كلّ شيءٍ حيّ . قال تعالى[1] : ﴿ وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون ﴾ فثمّة رباطٌ داخلىّ يشدّ هذين الجانبين من الآية المادّيّة المحسوسة الّتى تتكوّن هى بدورها من عناصر مختلفة .

وتتحدث الآية الكريمة بعد ذلك عن آيتين مادّيّتين أخيرتين هما تصريف الرّياح والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض . ونستطيع أن ننظر إلى تصريف الله سبحانه وتعالى للرّياح من زاويتين اثنتين . من زاوية موضع هذه الآية الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته فى سياق الآيات فى الآية الكريمة بعامّة . ومن زاوية الآيات الثّلاث المتلازمة الماء والرّياح والسّحاب بخاصة .

إنّه بالنّظر إلى آية تصريف الرّياح بالقياس إلى الآيات المذكورة من قبل فى الآية الكريمة نستطيع أن نتبيّن حظّ هذه الآية الكريمة من الإحاطة والشّمول الموفورين ، ولكن من زاويةٍ خاصّة ألا وهى كونها آية يحسّ بها ولكنّها لا تبصرها العينان بخلاف الآيات المادّيّات السّابقات الّتى لها الحظّ الموفور من الإحاطة والشّمول ولكنّها كلّها تبصرها العينان ، وهى آيات السّماوات والأرض واللّيل والنّهار والماء الملح والماء العذب والنّفع القريب التّناول لكلٍّ من الماءين . ومن البيّن آثار الرّياح ، ومن البيّن كذلك حاجة الخلائق للهواء .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠

وإنّه بالنّظر إلى آية تصريف الرّياح من زاوية التّرابط بين نزول الماء من السّماء وتصريف الرّياح والسّحاب يتبيّن أنّ السّياق قد اقتضى من قبل أن يتمّ الحديث عن النّوعين من المياه ، المياه المِلْحة والمياه العذبة ، فثمة ذكرٌ للأصل وهو الماء الملح وللفرع وهو الماء العذب ، وتنتشر الخلائق فى الأرض بفضل الله تعالى عليها بإنزال الماء العذب الفرات من المُزْن . وإنّه بالنّظر إلى هذه الآيات الثّلاث المادّيّة المترابطة من زاوية ترتيبها نستطيع حينما نتجاوز أعمال الرّياح المختلفة إلى النّوع ذى العلاقة بآيتى السّحاب والماء نستطيع أن نرتّبها على النّحو التالى . تثير الرّياح السّحاب وتزجيه بمعنى أنّها تسوقه برفق وتلقحه فينزل الماء ، يحدث كلّ ذلك بإرادة الله تعالى . وحينما تكون الآية الكريمة قد قدّمت الحديث عن نزول الماء العذب الفرات من السّحاب بسبب وجود القرينة الحاملة على هذا التّقديم وهو ذكر الماء المِلْح مصدر الماء العذب الفرات ، يكون معنى ذلك أنّه بقى لدينا فى ضوء ترتيب هذه الآيات الثّلاث آيتان هما الرّياح والسّحاب وترتيبهما على النّحو المذكور ذاته . وتصريف الرّياح للسّحاب بمعنى إثارة الرّيح للسّحاب فبسطه فى السّماء فجعله كسفاً أى قطعاً متفرقة فترى المطر يخرج من خلاله ، وبمعنى إزجاء الرّيح السّحاب فالتّأليف بينه بضمّ بعضه إلى بعض فتحويل القطع المتفرّقة قطعةً واحدة ، فجعله ركاماً أى بعضه فوق بعض ، فترى الودق يخرج من خلاله . والآية الكريمة فى تقديمها تصريف الرّياح على السّحاب تنبّه إلى التّرتيب لهذه الآيات الثّلاث المترابطة الرّياح السّحاب المطر . فمع آية تصريف الله سبحانه وتعالى الرّياح .

لقد عرفنا معنى تصريف الرّياح بأنّه صرفها من حالٍ إلى حال[1] وإرسالها عقيما ومُلْقِحةً وصِرّاً ونصراً وهلاكاً وحارةً وباردةً وليّنةً وعاصفة ، وإرسالها جنوباً وشمالاً ودبوراً وصَبَاً ونكباء وهى الّتى تأتى بين مهبّى ريحين . وبالنّظر إلى تصريف الرّياح بهذا المعنى يتبيّن أنه يتضمّن الخير والشّر ، النّفع والضّرّ . وقد تبيّنّا أنّ الجوّ الّذى تشيعه الآية هو جوّ البهجة والسّرور البشر والحبور ، فعلى سبيل المثال ذكرت الآية نفع النّاس وهو الهدف من إجراء الفُلْك فى البحر . واللّطيف فى الأمر أنّ هذه الآية المادّيّة قد تمّ صرفها

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٧٩

عن الشّرّ والضرّ إلى الخير والنّفع الخالصين وذلك بذكر صيغة الجمع الرّياح وليس صيغة المفرد ريح لأنّ آثار رحمة الله تعالى وليدة مجموعةٍ من الرّياح كسوق السّحاب وتلقيحه وصرفه بعد ذلك ، ولأنّ العذاب يقترن بالرّيح المفردة الشّديدة الملتئمة الأجزاء ولهذا اقترن فى القرآن الكريم كلّ خيرٍ بصيغة الجمع « رياح » إلاّ إذا كانت طبيعة الرّحمة تقتضى الرّيح الواحدة الشّديدة كتسيير السّفن ولهذا جاءت صيغة المفرد « ريح » فى آية سورة يونس وقد وصفت هذه الرّيح بأنها طيبّة فانفصل عن هذه الرّيح الضّرّ وزال الشّرّ . قال تعالى[1] : ﴿ هو الّذى يسيّركم فى البّر والبحر حتّى إذ كنتم فى الفُلْك وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دعَوُا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين ﴾ . إنّ تصريف الرّياح هنا من أجل كلّ الأغراض الخيّرة الخالصة وفى مقدّمتها ، كما يقتضى السّياق ، إزجاء السّحاب المسّخر بين السّماء والأرض . وإذا كانت لفظة الرّياح تقترن بها فى القرآن الكريم رحمة الله تعالى فإنّ لفظة ريح يقترن بها فى المقابل العذاب من الله تعالى إلاّ إذا اقتضت طبيعة الرّحمة الرّيح الواحدة الملتئمة كما مرّ بنا فى آية سورة يونس . والآن مع آية السّحاب المسخّر بين السّماء والأرض ، وهى آخر الآيات الماديّة ذكراً فى الآية الكريمة .

والآية الكريمة فى ذكرها لهذه الآية الماديّة لا تكتفى بذكر السّحاب إنّما تضيف إلى ذلك حقيقتين مهمّتين هما كون السّحاب مسخّراً وكونه بين السّماء والأرض . وقبل أن نتحدّث عن أهمّيّة كلٍّ من هاتين الحقيقتين فى حقّ السّحاب ، من الجائز أن نتدبّر هذه اللّفظة ونتفكّر فى الحكمة من اختيارها دون غيرها من الألفاظ الأخرى كالغمام والرّباب وما إليهما . ومن الجائز أن نلمس فى لفظة السّحاب صفةً من أهم صفاته ونعمةً من أكبر نعم الله تعالى على عباده حيث شاءت العناية الإلـٰهيّة لهذه الآية الّتى يتعلّق بها الكثير من النّفع للعباد أن تكون مقدّرة الحركة مضبوطتها كى يتحقّق من سيرها الأقرب إلى البطء نفع البلاد والعباد ، وكأنّ هذه الصّفة أو هذه النّعمة هى الّتى استرعت انتباه واضع

---

(١) سورة يونس ٢٢

اللّفظ وتقديره ، وها هو ذا يخلع على هذه الآية لفظة السّحاب : « إمّا لجرّ الرّيح له ، أو لجرّه الماء ، أو لانجراره فى كلّ مرّة »[١] وانسحابه فى الهواء « والسّحاب : الغيم فيها ماءٌ أو لم يكن ولهذا يقال : سحابٌ جهام »[٢] .

فإذا تحوّلنا إلى الحقيقة الأولى من الحقيقتين اللّتين نصّت عليهما الآية الكريمة فى حقّ السّحاب وهى صفة التّسخير : « والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض » تبيّنّا أنّ هذه الصّفة وإن كانت مشتركة بين كلّ ما خلق الله سبحانه وتعالى فى السّماوات والأرض فإنّها أكثر لصوقاً بالسّحاب وأدنى لأن تدركها كلّ عينٍ مبصرة دون بذل أدنى مجهود ، وكلّ بصيرةٍ نيّرة . حينما تبدو قطعةٌ من السّحاب تركض فى السّماء فمن منّا الّذى لا يتبيّن حركتها واتّجاهها ، إقبالها وإدبارها ، تجمّعها وتفرّقها ، وفاءها أو إخلافها . يحدث كلّ ذلك بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له . وسبق أن مرّ بنا الحديث الّذى رواه الإمام مسلم والّذى بيّن سماع رجلٍ بفلاةٍ من الأرض صوتاً فى سحابة : اسق حديقة فلان ففعلت السّحابة ما أمرت به وسقت حديقة ذلك العبد الصّالح المتصدّق . وممّا يعمّق صفة التّسخير فى السّحاب آية تصريف الله تعالى الرّياح .

ويبدو هذا التّسخير أشدّ وضوحا حينما نتأمّل الحقيقة التّالية المتعلّقة بالسّحاب وهى كونه بين السّحاب والأرض . إنّ النّاظر بطرفه إلى السّحاب يخيّل إليه أنّه لخفّته خليقٌ به أن يكون مسخّراً مذلّلا معلّقا . وحينما يفطن النّاظر للسّحاب إلى أنّ هذا السّحاب نفسه وخاصّةً حينما يكون ثقيلاً موقراً بالماء الّذى يحمل هو يحتوى من كمّيّات الماء الهائلة الحجم والثّقل ما لا يدرك حقيقته إلاّ الله تعالى وقد قال تعالى[٣] : ﴿ هو الّذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السّحاب الثّقال ﴾ يدرك هذا النّاظر معنى تسخير الله تعالى للسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض . إنّ السّحاب ، شأنه شأن السّماوات والأرض ، معلّق فى السّماء بيد القدرة الإلهيّة ، فليس ثمّة الدّعامة الّتى تدفع ولا العلاقة الّتى ترفع . وإنّ السّحاب الثقال منه وغير الثّقال رهين تصريف الرّياح بإرادة الله تعالى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٢٢٥

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٢٥

(٣) سورة الرّعد ١٢

الواحد الأحد القهّار الّذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد . وبفضل الله تعالى ليس السّحاب باللاصق بالأرض كى يحول بين النّاس وبين قضاء المصالح كالّذى يحدث أوقاتاً معيّنة بفعل الضّباب مثلاً ، ومن ثمّ فلا ينطبق قول الشّاعر فى السّحاب[1] :

دانٍ مسفٍّ فويق الأرض هَيْدَبُهُ يكاد يدفعه من قام بالرّاح

إلا على القليل النّادر منه والّذى يتحقّق معه فى وقت الرّاحة بخاصّة شيءٌ غير قليلٍ من الجمال والجلال . تخيّل كميّةً قليلةً من الماء تحملها على رأسك وتمثّل ثقلها ، وتخيّل كمّيّة الماء الّتى تحملها سيّارة تمرّ أمامك بصِهْريجها وتمثّل ثقل تلك الكميّة الّتى تنوء بها تلك السّيّارة وتخيّل بعد ذلك كمّيّة المياه الّتى تنزل من السّماء والّتى تسيل بها الأوديّة وتجرى الأنهار وتتدفق البحيرات . إنّ هذه الكمّيّات الهائلة الثّقيلة من المياه يحملها بإرادة الله تعالى السّحاب المسخّر بين السّماء والأرض ، ذلك السّحاب الّذى لو ألقيت فى أثنائه بأصغر حجر لما قوى على استبقائه . وهكذا يتبيّن شدّة لصوق صفة التّسخير بالسّحاب المعلّق بيد القدرة الإلٰهيّة بين السّماء والأرض . ويلاحظ ابتداء الآيات وانتهاؤها بالسّماوات والأرض .

وفى نهاية الآية الكريمة يجىء اسم إنّ المصدّر باللّام الّتى تفيد التّوكيد : ﴿ لآيات لقومٍ يعقلون ﴾ إنّ فيما ذكرته الآية الكريمة آياتٍ بيّنات ودلائل واضحاتٍ على قدرة الله تعالى المطلقة ووحدانيّة جلّ وعلا ، فعلى العباد جميعاً وفى مقدمتهم كفّار مكّة أن يتدبّروا هذه الآيات وأن يستعملوا نعمة العقل الّتى أكرمهم الله تعالى بها استعمالاً صحيحاً كى ينتهوا إلى ما فيه صلاحهم فى الأولى وسعادتهم فى الآخرة وذلك بإفراده جلّ وعلا الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر بالعبادة . روى أنّ النّبىّ ﷺ قال : ويلٌ لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها أى لم يتفكّر فيها و لم يعتبرها[2] . ومن مظاهر توفيق الله تعالى للعبد فى استعمال نعمة العقل استعمالاً صحيحاً أن يستعمل العبد العقل فى ميادينه الّتى تنفع وتجدى باعتباره مظهراً واحداً من مظاهر الحصول على المعرفة ، وما أحرى

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص ١٥ ومسفّ : شديد الدّنوّ من الأرض ، وهيدبه : ما تدلّى منه .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٨١

ميدان السّماوات والأرض كى يلجه العقل وكى ينتهى المرء عن طريقه إلى أصحّ النتائج وأدقّها . ومن مظاهر عدم التّوفيق أن يزجّ المرء بعقله فى غير ميدانه كميدان الغيب مثلا . إنّ فى الزّجّ بالعقل فى هذا الميدان استهزاءً بالعقل وأهداراً لطاقته وتحميله ما لا طاقة له به ، وإنّ لنا فى تاريخ البشريّة الطّويل أكبر الأدلّة وأكثرها على إهدار قوّة العقل وطاقته بزجّه فى الميادين الّتى لم يخلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها ، وكانت نتيجة هذا الإهدار الضّلال ، والإضلال المبين . إن فى القرآن الكريم ما يزيد على الأربعين موضعاً[1] جاء فيها الحثّ على التفكّر واستعمال العقل استعمالاً صحيحاً باعتباره إحدى الوسائل المتعدّدة للحصول على المعرفة . والخطأ كلّ الخطأ أن يعتبر العقل المصدر الوحيد للمعرفة .

« وقال بعض الحكماء : إنّ كلّ شيءٍ فى العالم الكبير له نظيرٌ فى العالم الصّغير الّذى هو بدن الإنسان . ولذلك قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ . وقال : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فحواسّ الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة ، والسّمع والبصر منها بمنزلة الشّمس والقمر فى إدراك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض . وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الرّوح والنّفس . ومن جنس النّار فيه المرّة الصّفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض . وكبده بمنزلة العيون الّتى تستمدّ منها الأنهار ، لأن العروق تستمدّ من الكبد . ومثانته بمنزلة البحر لانصباب ما فى أوعية البدن إليها كما تنصبّ الأنهار إلى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال الّتى هى أوتاد الأرض . وأعضاؤه كالأشجار كما أنّ لكلّ شجرٍ ورقاً أو ثمراً فكذلك لكلّ عضوٍ فعل أو أثر . والشّعر على البدن بمنزلة النّبات والحشيش على الأرض . ثمّ إنّ الإنسان يحكى بلسانه كلّ صوت حيوان ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان . فهو العالم الصّغير مع العالم الكبير مخلوقٌ محدثٌ لصانعٍ واحدٍ لا إلٰه إلاّ هو »[2]

---

(١) الله فى العقيدة الإسلاميّة ص ١٢

(٢) تفسير القرطبي ص ٥٨٣

[٩]

كافـرون ومؤمنـون

الآيات ١٦٥ ــ ١٧٧

وَمِنَ

ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ
وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ
أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾
۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

إنّه على الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى فثمّة الكافرون الّذين يتحدّث عنهم السّياق فيبيّن أنّ من النّاس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله من حبّ الكافرين الأنداد . ولو يرى الّذين ظلموا فى هذه الحياة الدّنيا العذاب الّذى ينتظرهم فى الآخرة لآمنوا ففى ذلك اليوم يتبرّأ الّذين اتُّبعوا من الّذين اتّبعوا ويتمنّى التّابعون لو تتاح لهم الفرصة مرّةً أخرى كى يتبرّءوا منهم فى الحياة الدّنيا وليس للفريقين سوى الحسرات والخلود فى النّار . ويأمر السّياق النّاس بأن يأكلوا الحلال الطّيّب وألاّ يتّبعوا خطوات الشّيطان الّذى يأمرهم بالسّوء والفحشاء وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون . وهؤلاء يصرّون على اتّباع آبائهم الّذين لا يعقلون ولا يهتدون . إنّ مثل هؤلاء وداعيهم إلى الهدى النبىّ المصطفى المختار كمثل الرّاعى الّذى ينعق بغنمه الّتى لا تسمع إلاّ دعاءً ونداءً . إنّ الكافرين صمٌّ بكم عميٌّ فهم لا يعقلون . ويؤمر المؤمنون بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله تعالى وأن يشكروا له جلّ وعلا نعمه وآلاءه إذ لم يحرّم عليهم سوى الخبائث . ويتحوّل السّياق إلى الّذين يكتمون ما أنزل الله تعالى ويشترون به ثمناً قليلاً وبخاصّةٍ اليهود فيبيّن أنّهم ما يأكلون فى بطونهم إلاّ النّار ولا يكلّمهم الله تعالى يوم القيامة بسبب كتمانهم شهادة الحق ولا يزكّيهم لإدلائهم بشهادة الزّور ولهم عذابٌ أليم لأنّهم اشتروا الضّلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فأعجبوا لصبرهم على النّار على الرّغم من كون الكتاب السّماوىّ بين أيديهم .

ولمّا كانت مسألة القبلة مثار استنكار السّفهاء فإنّ آية البرّ أو الإيمان تمسّ هذه المسألة وتقرّر أن البرّ ليس مجرّد تولية الوجوه فى الصّلاة قِبل المشرق والمغرب فإنّ للبرّ متطلّباتٍ أخرى تذكرها آية البرّ فى أسلوب القرآن الكريم المعجز .

الآيــة رقــم (١٦٥)

قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبّ الله . والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله . ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعاً وأنّ الله شديد العذاب ﴾ .

ومنّ النّاس : يقول أبو حيّان[١] : « ولفظ النّاس عام ، والأحسن حمله على الطّائفتين من أهل الكتاب وعبدة الأوثان . فالأنداد باعتبار أهل الكتاب هم رؤساؤهم وأحبارهم اتّبعوا ما رتّبوه لهم من أمرٍ ونهى وإن خالف أمر الله ونهيه . قال تعالى : اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . والأنداد باعتبار عبادة الأوثان هى الأصنام اتّخذوها آلهةً وعبدوها من دون الله .... ورجح كونهم أهل الكتاب بقوله : يحبّونهم ، فأتى بضمير العقلاء ، وباستبعاد محبّة الأصنام ، وبقوله : إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا . والتّبرّؤ لا يناسب إلاّ العقلاء » .

من يتّخذ : من مبتدأ موصول أو نكرة موصوفة . وأفرد يتّخذ حملاً على لفظ من[٢] .

من دون الله : دون هنا بمعنى غير وأصلها أن يكون ظرف مكان[٣] وقد حكى سيبويه أيضاً أنّها تكون بمعنى ردىء تقول : هذا ثوبٌ دون أي ردىء . فإذا كانت ظرفاً دلّت على انحطاط المكان[٤] .

أندادا : نديد الشّىء مشاركه فى جوهره وذلك ضربٌ من المماثلة فإنّ المثل يقال فى أىّ مشاركةٍ كانت ، فكلّ ندّ مِثْل وليس كلّ مثلٍ ندّاً . ويقال : ندّه ونَديده ونديدته[٥] وواحد الأنداد ندّ[٦] والنّدّ المِثْل والنّظير[٧] والعدل[٨] قال ابن عبّاس

---

(١) البحر المحيط ٤٦٩/١ (٢) البحر ٤٦٩/١ وانظر تفسير القرطبى ص ٥٨٤
(٣) البحر المحيط ٤٦٩/١ (٤) البحر المحيط ٤٦٩/١
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٤٨٦ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٣
(٧) تفسير ابن كثير ٢٠٢/١ (٨) تفسير الطّبرىّ ٤٠/٢

والسّدىّ : الأنداد الرّؤساء المتّبعون يطيعونهم فى معاصى الله تعالى . وقال مجاهد وقتادة : الأنداد الأوثان[١] وانتصب أنداداً هنا على المفعول بيتّخذ . وهى هنا متعدّية إلى واحدٍ نحو قولك : اتّخذت منك صديقاً . وهى افتعل من الأخذ[٢] .

يحبّونهم كحبّ الله : يحبّونهم : يعظّمونهم ويخضعون لهم[٣] وجاء الضّمير فى يحبّونهم ضمير من يعقل[٤] قال ابن كيسان والزّجّاج أيضاً : معنى : يحبّونهم كحبّ الله ، أى يسوّون بين الأصنام وبين الله تعالى فى المحبّة . قال أبو إسحاق : وهذا القول صحيح ، والدّليل على صحّته : والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله[٥] كحبّ الله : أى كتعظيم الله والخضوع له[٦] والحبّ مصدر حبّ يحبّ[٧] والكاف على رأى الجمهور نعت لمصدر محذوف تقديره حبًّا مثل حب الله[٨]

والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله : أى أشدّ من حبّ أهل الأوثان لأوثانهم والتّابعين لمتبوعيهم[٩] وانتصاب حبّاً على التّمييز وهو من التّمييز المنقول من المبتدأ تقديره : حبّهم لله أشدّ من حبّ أولئك لله أو لأندادهم على اختلاف القولين[١٠] ومقتضى التّمييز بالأشدّيّة إفراد المؤمنين له بالمحبّة[١١] « قال الرّاغب : الحبّ أصله من المحبّة . حببته أصبت حبّة قلبه وأصبته بحبّة القلب . وهى فى اللّفظ فعلٌ وفى الحقيقة انفعال . وإذا استعمل فى الله فالمعنى أصاب حبّة قلب عبده فجعلها مصونةً عن الهوى والشّيطان وسائر أعداء الله انتهى »[١٢] « فمحبّة الله تعالى للعبد إنعامه عليه ، ومحبّة العبد له طلب الزُّلْفى لديه[١٣] » .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٦٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٨٣
(٢) البحر المحيط ١/٤٦٩
(٣) الكشّاف ١/٢٤٨ والبحر المحيط ١/٤٦٩
(٤) البحر المحيط ١/٤٦٩
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٣
(٦) الكشّاف ١/٢٤٨
(٧) البحر المحيط ١/٤٥٦
(٨) انظر هنا البحر المحيط ١/٤٦٩
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٤
(١٠) البحر المحيط ١/٤٧١
(١١) البحر المحيط ١/٤٧٠
(١٢) البحر المحيط ١/٤٧٠
(١٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ١٠٥